

مكتبة جامعة القاهرة

الكتاب

مكتبة جامعة القاهرة
الكتاب
العدد
الصفحة

808.06
Ta 176nA
v. 7
C. 1

الدكتور أحمد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

دروس ومحاضرات بكلية الآداب

٢

نظرة تاريخية
في
حركة التأليف عند العرب

في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا

المجلد الأول

اللغة والادب

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

٢

مكتبة

مفوق الطبع محفوظ للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذا الكتاب

هذه مجموعة دروس في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا حتى فجر النهضة الحديثة . والموضوع من المنهاج المقرر لشهادة الثقافة العامة ، أي شهادة السنة الأولى التحضيرية بكلية الآداب . وقد سبق لي أن ألقيت على طلاب الشهادة المذكورة دروساً في هذا الموضوع فأخذ الطلاب عني بعض الأُمالي والخلاصات وتوزعوها فيما بينهم . وقد اضطرني اليوم الى إعادة النظر في هذه الدروس وطبعها أني رأيت هذه الأُمالي التي يتناقلها الطلاب مشحونة بالأغلط مما ينقص الفائدة المرجوة من مثل هذه الدراسة .

واني لأرجو بعد اليوم — وقد أصبح هذا الكتاب في متناول الأيدي — أن ينتفع طلاب شهادة الثقافة العامة استفاداً كاملاً بدراسة هذا الموضوع الذي هو دعامة أساسية في ثقافتهم الأدبية . والله الموفق .

دمشق : ٢٦ شهر ربيع الأول ١٣٧٤

٢١ تشرين الأول ١٩٥٤

أحمد الطرابلسي

المقدمة

لهذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب هدف مزدوج . فهو يرمي إلى أن يكون لدى الطلاب فكرة موجزة وواضحة عن بعض نواحي النشاط الفكري عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة ؛ كما يرمي أيضاً إلى دلالة الطالب الجامعي على المراجع والمصادر الهامة التي هو بحاجة إليها لاستكمال أدوات بحثه .

أما الهدف الأول فلا حاجة إلى الإلماح على بيان فائدته ؛ إذ أن هذا البحث من أهم نواحي تاريخ العرب الفكري ، ذلك التاريخ الذي لابد للطالب الجامعي من الاطلاع عليه اطلاعاً صحيحاً ليبقى مستقبلنا العلمي متصلاً بماضيها وثق اتصال . وأما معرفة المصادر والمراجع فأمر لا يستغني عنه طالب العلم وآلة لا يمكن له بدونها أن يسهم حقيقة في تقدم المعارف الإنسانية .

وطالب العلم مع حاجته إلى معرفة المراجع والمصادر ، يحتاج أيضاً إلى معرفة أساليب الرجوع إليها والاستفادة منها ؛ إذ أن معرفة هذه الكتب الأساسية شيء ومعرفة طرق الاستفادة منها شيء آخر . وهذا مالا يمكن اكتسابه إلا بمعرفة مضمون هذه الكتب ولو إجمالاً ؛ كما أنه أمر لابد فيه من الخبرة والممارسة الطويلة . وربما أنفق الناشئ المبتدئ من وقته في جمع عناصر بحثه أو في مراجعة مسألة من المسائل أضعاف ما ينفعه في ذلك الباحث الجدير المتمرس .

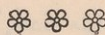
ثم إنه لابد للطالب العلم أخيراً من أن تكون خبرته بالمصادر والمراجع عميقة وشخصية ، وذلك كي يستطيع الاستفادة منها بنفسه وبدون كبير مشقة . ولا يعد الباحث متمكناً من أسلوب العمل إلا إذا كان في وسعه أن يعثر بنفسه على المصادر التي تقتضيه طبيعة بحثه الرجوع إليها .

لقد جرت العادة أن توصف البحوث العلمية القيمة بأنها **مبتكرة** ، وليس معنى ذلك أن صاحبها يجيء من عنده بكل شيء . بل ان البحث العلمي المبتكر هو في الحقيقة البحث المستوعب الذي لا يتجاهل صاحبه شيئاً مما كتب قبله في موضوعه . وبغير هذا الاستيعاب العلمي الضروري لا يمكن للبحث الجديد أن يسجل في مضمار العلم خطوة التقدم التي لا بد منها ليكون مبتكراً . ولهذا ربما صح أن يفضل ، في منطق البحث العلمي ، الباحث الدؤوب الذي يعرف كيف يهتدي إلى مصادره بنفسه وكيف يستفيد منها بشكل منهجي — على الباحث الذي يعي في صدره علوماً كثيرة ولكنه يخطئ المنهج الصحيح كما تصدى للدراسة أو البحث .



هذه — بإيجاز — الدوافع والاعتبارات التي اقتضت تسجيل هذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب وكانت سبباً في إنشاء هذه الدروس وإلقائها على طلبة السنة المشار إليها .

وقد حرصنا في هذه الدروس على بلوغ الهدف الذي تحدّثنا عنه آنفاً . فجرّ دناها من طابعها النظريّ ماوسعنا ذلك ، متوخّين منها غالباً الفائدة العملية التطبيقية . ونعتقد أن هذه الدروس لن تؤتي أكلها المرجو " إلا إذا اعتاد الطلاب الرجوع إلى هذه الكتب بأنفسهم باحثين أو قارئین متصفّحين . ولهذا ننصح الطلاب أن يبذلوا ما في وسعهم حتى يتعرفوا إلى هذه الكتب شخصياً في المكتبات العامة ولا سيما في مكتبة الجامعة .



الباب الثاني

التأليف في اللغة

تمهيد :

إن جمع اللغة وتثبيتها في الرسائل الجزئية المتفرقة أو في المعاجم الجامعة ذات الطرق المتنوعة يهنا هنا أكثر من سواه من أنواع التصانيف اللغوية الأخرى . ذلك لأن المعاجم هي المرجع الذي لا غنى عنه في كل بحث مهما كان نوعه ؛ بل هي المرجع الذي يستوي في الحاجة إليه الناشئ المتعلم والباحث المنقب . ولا ريب في أن تنوع المعاجم لدى الأمة ، وتجددها من حين إلى آخر ، وذيوع استعمالها بين الافراد . دليل على حيوية هذه الأمة وحيوية لغتها .

إن المعاجم هي مراجع قبل كل شيء ، يرجع إليها عند الحاجة ، وليست كتب قراءة أو تسلية . كما أنه لا حاجة بأحد إلى استظهار ألفاظ المعجم ، وليس الذي يحفظ المعجم سوى نسخة معجم جديدة . وليس يغني الأمة كثير أن تزداد فيها نسخ المعاجم نسخة أو نسختين . ولا يمكن للمعاجم كثيراً ما تكون مصادراً للبحث ومسنقى لمادته ولا سيما في تاريخ اللغة وفقهاها . ومعاجمنا المسهبة مثل لسان العرب وتاج العروس ، التي هي أشبه بالموسوعات منها بالمعاجم ، أبين دليل على ذلك .

وربما صلحت المعاجم أن تكون أحياناً كتباً للقراءة والتسلية ، إذا

كان المطالع مغرمًا بهذا النوع من القراءة الجدّية ، على شريطة ألا تقتصر المطالعة على هذا النوع من الكتب ، وأن تكون القراءة للتسلية والكشف بالمصادفة لا للحفظ والاستظهار. وقد عرف عن كثير من الأدباء ولوعهم بقراءة المعاجم ورغبتهم في الاستسلام إلى مفاجاتها الطريفة التي تكشف لهم عن كثير من أساليب اللغة وأسرارها . كيف لا ولغة الامة هي منطقها وفكرها مجموعين بين دفتي كتاب واحد ؟

ومعاجم اللغة — إذا استثنينا دوائر المعارف أو الموسوعات — على نوعين :

أ - معاجم الألفاظ : وهي تفيدنا مبدئيًا في الكشف عن معنى لفظة من الألفاظ .

ب - معاجم المعاني : وهي تفيدنا مبدئيًا في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندرى كيف نعبر عنه بدقة .

وسنخصص كل نوع من هذين النوعين بفصل خاص .

الفصل الاول

معاجم الالفاظ

قلنا ان معاجم الالفاظ تفيد في الكشف عن لفظ من الالفاظ
نجهل معناه كل الجهل ، او نعرفه بشكل غامض ونودّ لو نعرفه
بشكل دقيق .

ولكن لمعاجم الالفاظ في اللغة العربية -- ولا سيما الكبيرة منها --
فوائد اخرى لاسيلا لاحتصائها هنا ، يعرفها المتمرس بهذه المعاجم حق
المعرفة : منها ضبط الالفاظ ، والاطلاع على تطور معاني المفردات من
عصر الى آخر ، والكشف عن أعلام الأشخاص والقبائل والأماكن
وضبطها ، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة .

لقد جرى جمع ألفاظ اللغة العربية على مراحل ثلاث ، وإن شئت
فقل على أسطال ثلاثة . لأن هذه الأسطال هي في الحقيقة مترادفة متعاصرة
وليست مراحل متعاقبة تحرفها الفواصل الزمنية الثابتة :

المرحلة الاولى -- هي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها بدون

ترتيب . وقد جرى هذا الجمع بفضل نشاط الرواة والعلماء منذ أواخر القرن الهجري الأول وخلال القرن الثاني، أي في العصر الذي كان يجري فيه جمع الحديث والأدب . وكان السماع عن الأعراب والاتصال المباشر بهم في صحرائهم أو حين قدومهم إلى المصار أحد المصادر الأساسية التي اعتمدها الرواة في جمع اللغة . أما مصادرهم الأساسية الأخرى التي استنبطوا منها مفردات اللغة فهي القرآن والحديث والأدب القديم بشعره وأخباره وأمثاله .

وكانت كل طبقة من الرواة تتلقف ما جمعته سابقتها من مفردات اللغة وتزيد إليه بجهودها الخاصة ثروة جديدة . ثم أخذ بعض الرواة يدونون هذا التراث اللغوي في رسائل مفرقة تمتاز بغناها كما تمتاز بظاهرها الابتدائي العفوي البعيد عن التنسيق والترتيب .

ولعل كتاب النوار في اللغة لأبي زيد الأنصاري ^(١) خير ما بين أيدينا من كتب لغوية تمثل هذه المرحلة ؛ إذ نرى المؤلف يورد فيه النصوص الشعرية والنثرية الملائمة بالمفردات الغريبة النادرة فيشرحها ويعلق عليها بعض التعليقات اللغوية من غير ترتيب في إيراد النصوص أو ربط بين معاني الألفاظ .

(١) أبو زيد الأنصاري : سعيد بن أوس ، من أكبر أئمة اللغة والرواية في البصرة ، ومن أوثقهم ، ولد سنة ١١٩ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ . وإياه يعني سيدي في قوله « حدثني الثقة » . له كتب طبع طائفة منها ، أشهرها (النوار في اللغة) طبع في بيروت في المطبعة الكاثوليكية بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني عام ١٨٩٤ م .

وهذه أمثلة من هذا الكتاب تبين طريقة مؤلفه فيه .
 « ويقال : ثوب : **مهرلزل** إذا أرقه نساجه فباعدين خيوطه . ورأيت
 الرجلين **يرتعدون** **فتمتد** إذا تكلموا بكلام يسرانه من غيرهما لا يفهمه
 غيرها . ويقال : في صدر فلان عليّ **وعغل** أي شر . و **الدغمة** أيضاً
 القوم يريدون خيانة الانسان أو عيبه ... ويقال **اعتفت** البلد **اعتافاً** إذا لم
 يوافقك واستوخمت . ويقال : عرفني **لنساها** الله ، مهموز ، أي لا أطال
 الله أجلها . ويقال في مثل : **سقط العشاء به على سرها** ^(١) إذا طلب
 حاجة فوق وقع منها على داهية . ويقال : لم أجد عنده **أبعر** أي طائلاً . ويقال :
رجل أبـل ، وقداً **بل** بالمال **يا بـل** **أبـلاً** إذا لم يرض للمال بمرتفع سوء
 ولا مشرب سوء وأحسن رعيته **إبلاً** كانت أو شاء . ويقال في مثل :
لوعدم عائس **وصمرت** ، يقال هذا للرجل **يرمل** ^(٢) من المال
 والزااد فيلقى الرجل فينال منه الشيء بعد الشيء ، ثم الآخر حتى يبلغ
 أهله . ويقال في مثل : **نعيم كلب في بؤس أهله** — **وبئس أهله وبئس**
أهله لغتان — ، يقال هذا للانسان اذا أكل من مال غيره؛ واصله أن كلباً
 سمن وأهزل الناس فأكل الجيف حتى سمن ونعم وأهله **بأسون** . وقالوا :
الرُبـع والرُبـع واحد في السن ، واكنه دعي هبعاً لكثرة حنينه لا يكاد

(١) السرحان : الذئب

(٢) أرمل الرجل : افتقر .

يسكت . قال ابو حاتم ، وقال الاصمعي عن جبر بن حبيب أخى امرأة العجاج قال : الرَّبْعُ الذي نتج في الربيع ، والهَبْعُ الذي نتج في الصيف فهو ضعيف فاذا مشى مع أمّه لم يطق المشي فأبطرته ذرعاً ^(١) فبيع أي استعان بعنقه . ويقال في مثل : ما أنت الا طائفة الجبل ، مرهماً يقل تقبل وذلك اذا تكلمت فردّ عليك شيء مثل كلامك وهو الصدى الذي اذا قلت شيئاً اجابك مثله ويقال : أَوْزَمْتُ لله عليّ يميناً لا أفعل ذلك ابداً ، أي جعلت لله عليّ يميناً . ويقال : معه زُرة من الناس . أي جماعة ، وهي الابل والغنم العظيمة الضخمة الخ ... ^(٢)

إن هذا النص يوضح طريقة ابي زيد الانصاري في نواتره كل التوضيح فالمؤلف يسرد المفردات الغربية والامثال النادرة بالترتيب ويسردها سرماً ، على ايجازه ، طافياً . ومن السهل جداً ان نتبين انه لا رابطة تربط بين هذه الامثال او هذه المفردات اللهم الا الغرابة والندرة . ويخيل إلينا أن هذه الرسالة هي اصدق صورة لما كان عليه جمع اللغة في المرحلة الاولى .

المرحلة الثانية - . وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مرتبة في رسائل متفرقة صغيرة محدودة الموضوع مبنية على معنى من المعاني او على حرف

(١) أبطرته ذرعاً : حملته ما لا يطيق . راجع : اللسان ، مادة (هبع) .

(٢) انظر : النوادر ، ص ٢٤٦-٢٤٨ .

من الحروف . وكل هذه الرسائل الصغيرة ، سواء ما وصل منها وما فقد ،
انما ذابت في المعاجم الجامعة التي ألقت فيما بعد .

وقد وصلنا كثير من الرسائل التي تمثل هذه المرحلة فلا بـي زيد الانصاري
صاحب كتاب النوادر الذي سبقت الاشارة اليه في هذا الفصل عدد من الرسائل
اللغوية التي تمثل هذا الشكل الثاني من اشكال جمع اللغة . مثل : كتاب المطر
وكتاب اللبأ واللبن .^(١) كما ان لمعاصره الاصمعي^(٢) رسائل اخرى
كثيرة من هذا النوع مثل : كتاب الابل وكتاب الخيل وكتاب الساء
وكتاب اسماء الوموسى وصفانرا وكتاب خلق الانسان وكتاب النخل
والكرم وكتاب النبات والشجر^(٣) . ومن هذا النوع أيضاً كتاب الرمل

(١) كتاب (المطر) وكتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد نشر في بيروت عام
١٨٠٩ م وذلك في مجموعة من الرسائل اللغوية القيمة عنوانها (البلغة في شذور اللغة) .
وقد أشرف على تحقيق هذه الرسائل المستشرق أوغست هفنز والأب لويس شيخو .

(٢) الاصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، من اكبر علماء اللغة والرواية ،
وأغزرهم مادة ، وأوسعهم اطلاعاً وحفظاً ، ولد في البصرة سنة ١٢٢ هـ ، وتوفي فيها
سنة ٢١٦ هـ ، كان يكثر من التنقل في احياء العرب في البادية ، ويأخذ عنهم
اللغة والأخبار .

(٣) كتاب (النخل والكرم) وكتاب (النبات والشجر) نشر في مجموعة البلغة
في شذور اللغة (انظر حاشيتنا السابقة على كتابي المطر واللبأ واللبن لابي زيد الانصاري)
أما كتابا (الابل) و (خلق الانسان) فقد نشر في بيروت سنة ١٣٢٢ هـ في مجموعة =

والمنزّل المنسوب لابن قتيبة .^(١) وكل هذه الرسائل إنما جمعت فيها
الالفاظ بحسب معانيها وموضوعاتها . وهذه الرسائل هي التي دانت المادة
الاساسية لمعاجم المعاني التي ظهرت بعدها .

وهناك رسائل أخرى جمعت فيها الالفاظ بحسب المعاني بل تبعاً لأحد
حروف اصولها ، وهي تحمل عادة اسم الحرف الذي يجمع بين هذه
الاصول فيقال : كتاب الحاء وكتاب الجيم وهلمّ جرّاً ... ومن أشهر
ما وصلنا من رسائل هذا النوع كتاب الهمز لابي زيد الانصاري^(٢)

وهناك نمط ثالث من هذه الرسائل جمعت فيها الالفاظ التي تربط بينها
رابطة أخرى غير رابطة المعاني أو الحروف . من ذلك مثلاً الكتب التي
ألفت في **الارضراء** ، وقد جمعت فيها الالفاظ التي يستعمل كل منها للدلالة
على الشيء وضده ، مثل **الجور** الذي يطلق على الاسود والابيض وكفعل
يسرى الذي يدل على البيع وعلى الشراء^(٣) . ومن ذلك ايضاً ما ألفت في

==عنوانها : (الكنز اللغوي في اللسان العربي) . وأما كتابا (الشاء) و (الجيل) فقد
طبعا بعناية المستشرق هفنز . وأما (اسماء الوحوش وصفاتها) فقد طبع بعناية
المستشرق جاير .

(١) نشر كتاب (الرحل والمنزل) ايضاً في المجموعة المسماة (البلغة في شذور اللغة)
راجعه هناك اعتباراً من الصفحة ١٢٢ .

(٢) نشر كتاب الهمز بتحقيق الأب لويس شيخو في بيروت عام ١٩١٠ م .

(٣) من أشهر كتب الأضداد المطبوعة ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي
والسجستاني وابن السكيت نشرت في بيروت عام ١٩١٢ بتحقيق المستشرق أ. هفنز .

مثلث الكلام ، وهي رسائل عديدة جمعت فيها الالفاظ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة ، كأن تقول : **الغمم** -- بفتح الغين -- الماء الكثير ، و**الغمم** - بكسر ها -- الحقد ، و**الغمم** - بالضم -- الرجل الجاهل . ومن أشهر ما ألف في هذا الباب مثلثات قطرب ^(١)

ومن ذلك أخيراً الرسائل المختلفة التي جمعت فيها الالفعال ذات الاشتقاق الواحد ككتاب **فعل** و**افعل** لقطرب وكتاب **فعلت** و**أفعلت** للزجاج ^(٢) وغيرهما .

وكل هذه الرسائل كانت المادة الاساسية لمعاجم الالفاظ الكبرى التي ظهرت بعدها .

وفما يلي أمثلة موجزة تبين طريقة تأليف هذه الرسائل :

(١) قطرب : أبو علي محمد بن المستنير ، وقطرب : لقب لقيه به استاذة سيبويه فغلب عليه ، كان عالماً باللغة والنحو والأدب ، وهو على مذهب أهل البصرة ، وكان مؤدب أولاد أبي دلف العجلي ويقال انه اول من وضع المثلثات في اللغة . وقد طبعت المثلثات . في المانيا سنة ١٨٥٧م بتحقيق المستشرق ولمار

(٢) الزجاج : إبراهيم بن السري ، من علماء اللغة والنحو ، ولد في بغداد سنة ٢٤١ هـ ، وتوفي فيها سنة ٣٩١ هـ ، كان اول امره يخرط الزجاج واليه نسب ، ثم اخذ النحو عن المبرد ، وأدب القاسم بن عبيد الله وكان ابوه وزير المعتضد العباسي ، فلما ولي القاسم الوزارة جعله من كتابه فأفاد ثروة حسنة .

ألف كتباً منها (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (فعلت وأفعلت) وهذا مطبوع في مصر سنة ١٣٢٥ هـ ضمن مجموعة (الطرف الادبية) .

جاء في كتاب الهمز لابي زهير النصراني :

« تقول ، في باب من الهمز بَسَّات الرجل أَبْسَأَ به بسماً وبسوءاً ، وبَهَّات به بهماً وبُهِوَأ وهما واحد وهو استئناسك به . وتقول بَرَأَتْ من المرض فأنا أَبْرُؤُ وأَبْرَأُ بُرْءاً وبروءاً ، هذا من لغة أهل الحجاز ، وسائر العرب يقولون : بَرِئْتُ من المرض أَبْرَأُ بُرْءاً وبرئْتُ من الدين أَبْرَأُ براءةً . وتقول : أَبْدَأْتُ من أرضٍ إلى أخرى إذا خرجت منها إلى غيرها إبداءً . وتقول : بُدِئَ به فهو مبدوء ، إذا أخذه الجُدْرِي والحصبه . وتقول : بدأت بالأمْر بدءاً . وتقول : بكأت الشاة تبكاً بَكْئاً وبَكُوت تبكُوت بَكاءً وبَكْئاً إذا قلّ لبنها ، وهي شاة بكئية . وتقول : بذأته أَبْذَوْهُ بذءاً إذا ذمته ... »

وتقول في باب آخر من الهمز : قدرزأت الرجل أرزؤه رزءاً ومرزئة إذا أصبت منه خيراً ما كان . وتقول : ربأت القوم أربؤهم إذا كنت لهم طليعة فوق شرف فاسم الرجل الريئة . وتقول : أرجأت الامر إرجاءً إذا أخرته . وتقول : أرفأت السفينة إرفاءً إذا قربتها من الأرض . وتقول : رفأت الثوب أرفؤهُ رَفْئاً ورَفَّأت المملك (من الاملاك وهو الزواج) ترفئةً إذا دعوت له . وتقول : رافأني الرجل في البيع مرافأةً إذا حاباك به ... »

وتقول في باب آخر من الهمز : قد دنا يدناً دَناعةً ودَنَوَ يدنؤ إذا

كان دينياً لا خير فيه . وتقول : دألت للشيء أدأل دألاً ، ودأيت له أدأى دأياً إذا ختلته . تقول : دألت أدأال دألاً ودألاًناً ، وهي مشية شبيهة بالختل . ويقال : الذئب يدأل للغزال ليأكله . الخ ... » (١)

في هذا النص تتضح طريقة المؤلف في كتابه . فهو يعرض في كل باب منه الاصول اللغوية المنتهية بهمزة والمبدوعة بأحد حروف الهجاء . والنص المستشهد به مقتطف من أبواب ثلاثة متلاحقة في الكتاب وهي أبواب : الباء والزاي والهمال . ونلاحظ بسهولة أن أبواب الكتاب لم ترتب حسب الترتيب الهجائي المعروف . كما أن الألفاظ في كل باب من هذه الفصول ليست مرتبة أيضاً . فقد وردت الألفاظ في الباب الأول مثلاً بالترتيب التالي : بَسْأ - بَرَأ - بَرَأ - بَطَأ - بَرَأ . وكان من حقها لو رتبت أن تكون هكذا : بَرَأ - بَرَأ - بَرَأ - بَسْأ - بَطَأ . وقس على ذلك الابواب الاخرى . كل هذا يدل على أن جمع اللغة في مثل هذا الكتاب كان ما يزال في بدء مرحلة التنظيم .

وهذه أمثلة من كتاب آخر لابن زيد الانصاري جمعت فيه المفردات بحسب معانيها .

جاء في كتابه المطر :

« أسماء الرعرع : الرعرع وجماعه الرعود . ويقال : رَعَدَت السماء فهي

رَعْدٌ رَعْدًا ، وأرعد القوم إرعاداً إذا أصابهم الرعد. وفي الرعد **الزّرم** وهو صوت الرعد شديد وضعيفه ، وهو الهزيم . ويقال : **هزم** الرعد **هزماً** و**انهزم** **انهزماً** وفيه **القعقعة** وهو تتابع صوت الرعد في شدة ، وجماعها **القعاقيع** . وفيه **الرّجس** و**الرّجسانه** وهو صوت الرعد الثقيل ، رَجَسَ الرعد ورجست السماء ترجس رَجَسَاناً ورجساً . وفيه **الصاعقة** وجمعا **الصواعق** وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد . ويقال : أصعقت علينا السماء إصعاقاً . وفيه **الزبر** وهو صوت الرعد تسمعه من بعيد ...

أسماء البرق : **البرق** وجماعه **البروق** . ويقال **برقت** السماء **تبرق** **برقاً** وأبرق القوم إبراقاً إذا أصابهم البرق ، وتكسف البرق **تكشفاً** وهو إضاءته في السماء . واستطار البرق استطاراً وهو مثل التكشف . ولمح البرق يلمع لمعاً ولمعاناً وهي البرقة ثم الأخرى المرة بعد المرة . ولمح البرق يلمح لمحاً ولمحاناً وهو مثل الملع غير أن الملع لا يكون إلا من بعيد . وتسمى البرق **تبساً** الخ ... (١)

ونعتقد أن هذه الأمثلة كافية لبيان الخطوة التي حققتها هذه الرسائل المقتضية في طريق تنظيم جمع اللغة .

المرحلة الثالثة . - وهي مرحلة وضع المعاجم العامة الشاملة المنظمة.

(١) : انظر كتاب المطر لأبي زيد في مجموعة البلغة ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

وقد اتبّع في ترتيب مفردات اللغة في هذه المعاجم ثلاث طرق مختلفة
نتحدث عنها فيما يلي بحسب ترتيب ظهورها زمنياً .

آ - ترتيب الالفاظ بحسب مخارج الحروف

يكاد يتفق المؤرخون على أن أول من جمع اللغة أو حاول جمعها في معجم هو
الخليل بن أحمد الفراهيدي^(١) . واسم المعجم الذي قيل إن الخليل وضعه هو
كتاب العين . وقد رتبت فيه الالفاظ بحسب مخارج الحروف مع مراعاة
أواخر الأصول لأوائها . فكلمة (نبع) في باب العين ، وكلمة (~~نم~~)
في باب الميم وهكذا ... ولم يرتب الخليل أبواب كتابه بحسب الترتيب
الهجائي المعروف : اب ت ث ج الخ .. بل بحسب ترتيب مخارجها ، فبدأ

(١) : الخليل بن أحمد : أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ،
أكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها ، وأشدهم ذكاء ، وأخصهم عبقرية ،
وهو الذي استنبط العروض ، ولد في البصرة نحو سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٧٥ هـ ،
وعاش فقيراً زاهداً راغباً عن الدنيا ، منقطعاً إلى علومه ؛ وهو استاذ سيبويه .

ألف كتاب (العين) وهو أول معجم في اللغة العربية . والكتاب ما يزال مخطوطاً
نشر منه الأب أنستاس الكرملي جزءاً عدد صفحاته ١٤٤ ، في بغداد عام ١٩١٤ م ،
ثم حالت الحرب العالمية الأولى دون إتمام طبعه . ولكتاب العين مختصر ألفه أبو بكر
محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الاشيلي المتوفي سنة ٣٧٩ هـ . ولا يزال هذا المختصر
مخطوطاً أيضاً . انظر بحثاً قينافي كتاب العين وأولية المعاجم العربية نشر في مجلة المجمع
العلمي العربي عام ١٩٤١ بقلم الدكتور يوسف العث .

بـحـرـوفـ الحـلقـ فـالـلسـانـ فـالـاسـنـانـ فـالـشـفـتـينـ الخ ... وختـمـ كـتابـهـ بـحـرـوفـ
العـلةـ مـمـاـ أـدـىـ إـلىـ جـعـلـ تـرتـيبـ الكـتابـ عـلىـ الشـكـلـ التـالـيـ : ع ح ه خ غ
ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ث ر ل ن ف ب م و ا ي . كـمـاـ انـهـ
اتـبعـ الطـرـيـقةـ نـفـسـهاـ فـيـ تـرتـيبـ مـفـرـداتـ كلـ بابـ عـلىـ حـدةـ فـلـفـظةـ قـرـعـ
فـيـ بابـ العـينـ قـبـلـ زـرعـ وـهـذهـ الـلفـظةـ قـبـلـ رـفـعـ وـهـذهـ الـأخـيرةـ
قـبـلـ بـرعـ وـهـكـذا ...

وقـدـ بـدأـ الخـليلـ بـحـرفـ العـينـ لـأنـهـ مـنـ أـقـصىـ حـرـوفـ الحـلقـ ، وإنـ
لـمـ يـكـنـ أقـصـاها . وبـاسـمـ بابـ العـينـ الـذيـ هـوـ الجـزءـ الـاولـ مـنـ المـعـجمـ
سـمـيـ الكـتابـ كلـه . وـيـقالـ إنـ الخـليلـ لـمـ يـبـدأـ بـالـهمـزةـ وـلاـ بـالـهـاءـ مـعـ انـهـماـ أقـصىـ
مـخـرجـاً مـنـ العـينـ لـأنـ الـهـاءـ مـهـمـوسـةـ وـخـفيةـ وـلاـ أنـ الـهمـزةـ غـيرـ ثـابـتـةـ بـلـ هـيـ
عـرضـةـ لـلـحـذفـ وـالتـغـيـير .

ومـنـ خـصـائـصـ طـرـيـقةـ الخـليلـ فـيـ كـتابـ العـينـ أنـهـ لـمـ يـكـنـ يـكـتـفـيـ
بأنـ يـذـكـرـ فـيـ كلـ بابـ الكـلماتـ المـنـتهـيةـ بـحـرفـ مـعـيـنـ ، بـلـ كانـ يـذـكـرـ أـيـضاً
بـعـدـ كلـ مـادـةـ مـنـتهـيةـ بـهـذاـ الحـرفـ الكـلماتـ الـتيـ تـحـدثـ عـنـ تـبـديـلـ مـوضـعـ هـذا
الحـرفـ فـيـ الـاصـلـ المـذـكـور . فـهـوـ إذاـ ذـكـرـ مثلاً مـادـةـ صـرـعـ فـيـ بابـ
العـينـ وـشـرحـهاـ انـتـقلـ بـعـدهـاـ الىـ المـوادـ الآتـية : رـصـعـ وـعـصـرـ وـصـعـرـ
الخ ... وـهـوـ ماـ اصـطـلـحـ لـغـويـوـ العـربـ عـلىـ تـسـمـيتهـ بـالـاشـتـقـاقـ الكـبـيرـ (١)

(١) أما الاشتقاق الصغير فهو أخذ الصيغ والمباني المختلفة من أصل واحد كأخذ
عالم ومعلوم ومعلم وعلم يعلم من الأصل (ع ل م) . وأما الاشتقاق الأكبر فهو اتفاق —

ويرى بعض المؤرخين أن الخليل لم يكن إلا صاحب فكرة وضع المعجم ومبتدع طريقة ترتيبه . أما تنفيذ هذه الفكرة فمن عمل الليث بن المظفر^(١) . وليس من المستبعد أن يكون الخليل صاحب الفكرة والتصميم وواضع الجزء الأول من الكتاب ، وأن يكون الليث بن المظفر أو سواه متمم الكتاب . ذلك أن الخليل كان من العباقرة الأفاضل ، وكان الذي يأخذ عليه لبه إنما هو الرغبة الملحة في الاستنباط والاختراع في اللغة والنحو والصرف والعروض والموسيقى والحساب . ولعل تأمله في الأصوات موسيقياً هو الذي هده إلى اتباع الطريقة التي أشرنا إليها في ترتيب الفاظ اللغة . ومن المعلوم أن العباقرة المخترعين يكتفون عادة بنجاح الاختراع ويتركون لسواهم تفاصيل التنفيذ . ولعل الخليل - كسواه من هؤلاء المبتكرين - اكتفى بوضع طريقته لترتيب ألفاظ اللغة ولحصر أصولها حسابياً تاركاً لسواه أمر التطبيق والتنفيذ بعد أن كتب الجزء الأول من كتابه ليكون مثلاً يحتذى . ومما يقوي هذا الفرض أن

= كلمتين في حرفين من حروف الأصل مع تناسب بينهما في المعنى مثل : كد وكحد ورد وردع ومحا ومحق وهذى وهذر واحتفى واحتفل الخ ...

(١) الليث بن المظفر حفيد نصر بن سيار والي خراسان لبني أمية ، ويقال : بل هو ابنه . وكان من أصحاب الخليل بن أحمد . انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت .

كثيراً من علماء اللغة الثقات كابن جني^(١) والقيلي^(٢) رأوا في كتاب العين من الفساد والتخليط ما لا يعقل صدور مثله عن مثل الخليل^(٣) : ومما يقوي هذا الرأي أيضاً في نظرنا كون الخليل قد عاش في عصر لم يكن جمع اللغة فيه قد تمّ ؛ بل كان الرواة فيه ما يزالون يجدّون في جمع شتات اللغة وتدوينها في الرسائل الصغيرة . وإذا صحّ أنّ الخليل قد وضع معجمه بنفسه بكامله كان ذلك أعجوبة خارقة في تاريخ تدوين اللغة ، إذ يكون هذا المعجم قد سبق سواه من المعاجم العربية بقرن ونصف قرن تقريباً ؛

(١) ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني . من أكبر أئمة النحو والتصريف واللغة ، وأدقهم نظراً ، واقدرهم على الوقوف على أسرار تركيبها ، ولد في الموصل ، وكان أبوه مملوكاً رومياً ، وصحب أبا علي الفارسي أربعين سنة ، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٩٢ هـ .

له من الكتب (الخصائص) وهو كتاب نفيس طبع الجزء الأول منه في مصر . و (سر الصناعة) وقد شرع بطبعه حديثاً .

(٢) القلي : أبو علي إسماعيل بن القاسم ، كان من أحفظ أهل زمانه للغريب والشعر والأخبار ولد في منارجرد (في ديار بكر بالجزيرة) سنة ٢٨٨ هـ ، وفيها نشأ ، ثم انتقل إلى العراق ، وتلقى علومه ببغداد على ابن دريد وغيره ، ثم رحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ ، وأقام بقرطبة ، أيام عبد الرحمن الناصر . وكان ابنه الحكم يحبه ويرعاه وقد أملى كتابه المشهور (الأملالي والنوادر) في مسجد قرطبة ، وله من الكتب (البارع) وقد طبع قسم منه بالتصوير ، و (المقصور والمدود والمهموز) وسواها . وكانت وفاته سنة ٣٥٦ هـ .

(٣) : انظر مقاله في هذا الصدد السيوطي في كتابه المزهري ، ج ١ ، ص ٣٩ — ٤٠

ذلك أن أول معجم جامع ظهر بعد كتاب العين هو كتاب الجهرة الذي
سيأتي الحديث عنه لمؤلفه ابن دريد الأزدى المتوفى نحو سنة ٣٢١ هـ .
وقد سار على نسق الخليل في تأليف المعاجم مع بعض الاختلافات
الطفيفة أحياناً عدد من علماء اللغة الذين جاءوا بعده كأبي منصور الأزهري
في التهذيب^(١) وابن سيده الأندلسي في المحكم^(٢) .

ب — ترتيب أصول الكلمات حسب حروف المعجم مع مراعاة
أوائل هذه الأصول :

وهذه الطريقة نفسها قد مرّت بمراحل عديدة قبل أن تبلغ شكلها
السهل المألوف اليوم .

فمن أوائل اللغويين الذين اتبعوا هذا الأسلوب في ترتيب المعاجم
— إن لم يكن أولهم — ابن دريد الأزدى المتوفى سنة ٣٢١ هـ، وذلك

(١) الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي . أحد أئمة اللغة
والمصنفين فيها . ولد في هراة من أعمال خراسان سنة ٢٨٢ هـ ، وفيها توفي سنة ٣٧٠
هـ . كان أول امره معنياً بالفقه ، ثم غلبت عليه اللغة ، فرحل إلى البادية ، وأخذ عن
الأعراب أما معجمه (التهذيب) فما يزال مخطوطاً .

(٢) ابن سيده : أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي ، ولد في مرسية (شرقي الأندلس)
وانتقل بعد إلى دانية وفيها توفي سنة ٤٥٨ هـ . وهو من علماء اللغة المشهورين بسعة
الحفظ وجودته وكان ضريراً ، أما معجمه (المحكم) فما يزال مخطوطاً .

في كتابه **مهمرة اللغة** ^(١).

وقد رتبت الكلمات في هذا المعجم من حيث المبدأ حسب الترتيب الهجائي لحروف أصولها ، مع مراعاة أوائل هذه الأصول . نقول من حيث المبدأ لأن ابن دريد قد سار على نهج الخليل من حيث النظر الى تقلبات الأصل الواحد حسب نظرية الاشتقاق الكبير التي اشرنا اليها آنفاً . فهو اذا ذكر مادة يثق وشرحها في باب الباء انتقل بعدها إلى ثقب . وكذلك إذا بلغ في الباب نفسه مادة بقل ذكر بعدها على التوالي: قبل - قلب - لقب - لبق الخ ... وهذا مما عقد طريقته التي هي من حيث الأصل سهلة مأنوسة ، واضطرّ الباحث أن يتجرى المادة التي يريد ، لا في باب الحرف الأول من حروفها بل في باب الحرف الذي يسبق باقي حروفها من حيث الترتيب الهجائي . فمادة لقب انما نجدتها في بقل ، ولبس في بسل ، ونسب في بسن وهكذا .

وسبب ذلك أن ابن دريد ، شأنه في ذلك شأن الخليل بن احمد ، اراد

(١) ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد شاعر وعالم ، من كبار علماء العربية . ولد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ ، ورحل الى عمان فأقام فيها ١٢ عاماً ، ثم رجع الى البصرة ، ومنهارحل الى فارس فبغداد ، واتصل بالخليفة المقتدر ، فأجرى عليه راتباً إلى أن توفي سنة ٣٢١ هـ .

له من الكتب (الاشتقاق) طبع في أوروبا و (الملاحن) طبع في مصر ، واكبر كتبه (المهمرة) طبع في حيدر آباد بين سنتي ١٣٤٤ هـ — ١٣٥٢ هـ .

تجنّب التكرار في كتابه فلم يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالحرف الذي يليه . فهو اذا بلغ باب الراء من الثلاثي الصحيح مثلاً ، بدأ بذكر الأصول التي تبدأ براء ثم بزاي مثل رزم - رذن ... ثم ذكر الأصول التي تبدأ براء ثم بسين مثل رسغ - رسف - رسل ... ولكنه لا يذكر في هذا الباب مادة ربيع لأن ذكرها سبق في برع ولا ربيع لأن ذكرها سبق في جرع ولا رهم لأنه سبق شرحها في حرم ولا رزع لأنها سبقت في حرز ولا رسخ لأنها سبقت في فرس ، وعلى هذا فقس ...

ومما يزيد في تعقيد طريقة الجهررة ان المؤلف لم ينظر إلى مفردات اللغة نظرة واحدة ، بل قسمها إلى فئات بحسب عدد أحرف أصولها ونوع بنائها ، ورتب كل فئة في باب مستقل .

فالمادتان بت وبر مثلاً تجدهما في فصل الباء من باب (الثنائي الصحيح) كما يسميه ابن دريد . أما بمت وبربر فتجدهما في فصل الباء من باب آخر يسميه ابن دريد (باب الثنائي الملحق بالرباعي) . وأما بر وبرر فتجدهما في فصل الباء من باب ثالث ، هو (باب الثلاثي الصحيح) وتأتي بعد ذلك أبواب المعتل والرباعي وغيرهما . .

وكتاب الجهررة يبقى على رغم كل ما ذكرنا مرجعاً لغوياً قيماً لأنه أقدم معجم مفصل وصلنا تمامه ، إذ أن كتاب العين على ما يعتور قصّة وضعه من شكوك لم يصبح بعد في متناول الأيدي كما ذكرنا . نعم ، إن ابن

دريد سار على نهج الخليل في كثير من الأسس التي اتبعها ، ولكن الفضل يعود إليه في الخروج عن الطريقة الصوتية في ترتيب المعجم إلى النظام الهجائي المؤلف وهو تجديد كبير كان له أثره فيما بعد . وقد اضطر ناشرو الجهرة - لما لها من قيمة - أن يصنعوا لها فهارس أبجدية مطولة لا يقل حجمها عن حجم الأصل ، مما جعل المراجعة في هذا الكتاب اليوم أمراً سهلاً وميسوراً .

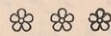
ثم جاء ابن فارس ^(١) فألف في اللغة معجمين اثنين بناهما على أسس واحدة ، أحدهما مختصر وهو المجمل وثانيهما جامع مفصل وهو كتاب مقاييس اللغة . وطريقة ابن فارس في معجميه هذين ، كطريقة ابن دريد ، قائمة على ترتيب مفردات اللغة على حروف المعجم مع مراعاة أوائل الكلمات ؛ إلا أن ابن فارس هذب طريقة سلفه من ناحيتين : أولاً أنه لم يراع تقلبات الأصل الواحد بل ذكر كل مادة في باب الحرف الأول منها . فمادة قبل في حرف القاف ، وبقل في الباء ولبق في اللام . أما ابن دريد فقد رأينا أنه كان يذكر كل هذه المواد في حرف الباء . والناحية

(١) ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، إمام في اللغة والأدب ، وهو أستاذ البديع الهمداني ، والوزير صاحب ابن عباد ، كانت ولادته سنة ٣٢٩ هـ وأصله من قزوين ، ثم أقام في الري فتوفي فيها سنة ٣٩٥ هـ وإليها نسبته .

له من التصانيف (مقاييس اللغة) طبع في مصر في ستة أجزاء سنة ١٣٦٦ هـ بتحقيق عبد السلام هارون و (المجمل) طبع الجزء الأول منه في مصر مرتين سنة

الثانية هي أن ابن فارس لم يقسم كلاماً من معجمه إلى أبواب كبيرة تبعاً لعدد الحروف التي تتألف منها الأصول العربية ، كما فعل ابن دريد حين قسم الجهرة إلى أبواب عديدة ، كباب الثنائي الصحيح و باب الثنائي الملحق بالرباعي ، و باب الثلاثي الصحيح ، و باب الثلاثي المعتل ، و باب الرباعي ... ولكنه قسم كل كتاب بدوره إلى كتب بعدد حروف المعجم ، ثم قسم كل كتاب بدوره إلى أبواب ثلاثة : ١ - الثنائي المضاعف ، ٢ - الثلاثي . ٣ - مافوق الثلاثي . و بذلك صرنا نجد مثلاً المواد : بت - بتر - بلعم في كتاب الباء نفسه فيما كنا لانعثر عليها في الجهرة إلا في أجزاء متفرقة .

ومما يؤسف له أن ابن فارس التزم في الباين الأول و ابن من كل حرف ما التزمه ابن دريد قبله من حيث ترتيب المفردات ، فهو لا يبدأ بعدد الحرف إلا بالذي يليه ، كأن يبدأ في باب الثلاثي من كتاب الباء بذكر بتر ، ثم بثن ، ثم بمحر ... حتى إذا استنفد حروف الهجاء بعد الباء و بلغ الياء في بيع و بين عاد فذكر بأسى و ما شابهها و كان من حقه أن يبدأ بها . و لكن كان لهذا الأسلوب المعقد ما يسوغه في الجهرة ، إذ استطاع به مؤلفها تجنب التكرار حين نظر في كل مادة إلى تقلبات حروفها ، فليس هناك ما يسوغه في معجمي ابن فارس الذي عزف كما رأينا عن الأخذ بهذا المبدأ في معجمه .



ولبت اللغويون بعد ابن فارس يتخبطون في مثل هذه الطرق ، محاولين

تلمس أسهل الوسائل إلى ترتيب ألفاظ اللغة في معاجمهم ، إلى أن استطاعوا بعد جهود كثيرة التخلص من الاعتبارات الصرفية التي كانت تعقد عملهم ، فوضعوا المعاجم المرتبة على حروف الهجاء مراعين فيها أوائل الأصول من غير خروج أو شذوذٍ عن القاعدة .

أما أن المغويين لم يصلوا إلى هذا النمط الطبيعي السهل في ترتيب المعاجم إلا بعد أن تخبَّطوا أجيالاً طويلة في مثل هذه الطرق المتوية التي وصفناها فهو أمر جد طبيعي . ذلك أن السهولة والبساطة هما الكمال عينه . فهما لهذا السبب أصعب الأشياء وأرقاها . ولا تصل الإنسانية في مستحدثاتها إلى السهولة والبساطة والطبع إلا بعد كثير من التجارب والجهود والتضحيات ، وبعد أن تمر بأدوار عديدة كلها صعوبة وتصنع وتعقيد . وهذا المبدأ ينطبق على المبتكرات الإنسانية جميعها ، مادية ومعنوية .

ولعل أول معجم تمثلت فيه هذه الطريقة المنطقية البسيطة السهلة هو كتاب أساس البلاغة للإمام الزمخشري ^(١) ، وهو معجم قيم غني فيه

(١) الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري . ولد في زمخشري سنة ٤٦٧ هـ وجاور في مكة زمناً ، وتقلب في البلاد ، وتوفي في (جرجانية) من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ . وهو من أئمة الدين والتفسير واللغة ، أشهر مؤلفاته (تفسير الكشاف) وقد طبع في مصر مرارا . وأما معجمه (أساس البلاغة) فقد طبع في مصر أكثر من مرة . ومن آثاره أيضاً (المفصل) في النحو وطبع مرارا في مصر لوحده ومع شرح ابن يعيش عليه .

مؤلفه بذكر المعاني المجازية للالفاظ إلى جانب معانيها الحقيقية . وسنعود إلى ذكره وبيان مزاياه بعد أن نفرغ من هذا العرض التاريخي . وقد سار على نهجه فيما بعد عدد من مؤلفي المعاجم ، أشهرهم مجد الدين بن الأثير في معجمه الضخم : **النهاية في غريب الحديث** ^(١) ، وأحمد بن محمد الفيومي في معجمه المختصر اللطيف : **المصباح المنير** ^(٢) . ولا ننس أن طريقة الزمخشري هي الطريقة التي تتبعها كل المعاجم العربية الحديثة .

م - ترتيب الكلمات حسب الترتيب الهمجائي ، مع مراعاة أواخر الكلمات

أول من اتبع هذه الطريقة في ترتيب المعاجم أبو نصر الجوهري ^(٣) أحد علماء اللغة في القرن الهجري الرابع ، وذلك في معجمه المشهور

(١) ابن الأثير : مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤ هـ . ورحل إلى الموصل فجعله صاحبها من اخصائه . أصيب أواخر حياته بالنقرس وتوفي في إحدى قرى الموصل سنة ٦٠٦ . وهو من علماء الحديث واللغة والأصول ، ألف كتباً كثيرة أهمها (النهاية في غريب الحديث) وهو مطبوع في أربعة أجزاء في مصر .

(٢) الفيومي خطيب ولغوي معروف من رجال القرن الهجري الثامن . كان خطيب جامع الدهشة بحماة . وقد طبع معجمه (المصباح المنير) عدة طبعات في مصر .

(٣) أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، من أئمة اللغة في القرن الرابع . أصله من (فاراب) ، توفي نحو سنة ٢٩٣ هـ . يقال انه مات قتيلاً بعد أن حاول الهبوط من سطح المسجد الى الارض طائراً بجناحين من خشب اخترعها .

تأج اللغة وصحاح العربية المعروف اختصاراً بمعجم الصحاح (١).

وخلاصة هذه الطريقة ان تصنف أصول اللغة في ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء، أولها باب الهمزة وآخرها باب الياء. ثم ثبت كل أصل من هذه الاصول في باب الحرف الاخير منه . فالاصول التالية :
أرب ، طرب ، عجب ، لعب ، كتب ، ... الخ تثبت في باب الباء . وكذلك
تثبت الاصول التالية : برع ، جمع ، صرع ، نفع ، وقع . . في باب
العين ، وهكذا.. ثم تصنف هذه الاصول بعد ذلك في كل باب بحسب
ترتيب أوائلها بعد أن يقسم كل باب الى ثمانية وعشرين قسماً أيضاً يسمى
كل منها فصلاً . وبحسب ما تقدم تثبت كلمة قرأ في فصل
القاف من باب الهمزة ، وهو أول ابواب المعجم . وتثبت كلمة ألى في
فصل الهمزة من باب الياء وهو آخر المعجم ، وترتب الاصول في كل
فصل بحسب الترتيب الهجائي لما يلي الحرف الاول من حروف الاصل
ففي فصل الخاء من باب الباء مثلاً ترتب الاصول الثلاثة كما يلي : فخب
خرب . ضرب ، فرب ، فصب ، فصب ، فصب ، فطب ... الخ . وينتهي
هذا الفصل بمادة خيب . وفي فصل العين من باب الراء ، ترتب هذه
الاصول مثلاً كما يلي : سار ، سمر ، ستر ، سمر ، سمر ، سمر ، سمر
سمر ، سطر ، سمر ... الخ وينتهي هذا الفصل بمادة سمر .

وإذا كانت الأصول رباعية روعي فيها أيضاً ترتيب ثوابها بعدمراعاة ترتيب ثوابها على الشكل الذي ذكر نقاً . فبعد أن ثبتت مادة سمر مثلاً في موضعها من فصل السين وباب الراء ، ثبتت الأصول الرباعية التالية المتصلة بهذه المادة : سمر^(١) ، سمر^(٢) .. الخ . وكذلك بعد أن تذكر مادة سمر في موضعها من الفصل نفسه تذكر الأصول الرباعية التالية : سمر^(٣) ، سمر^(٤) ... وهكذا دواليك .

ولم يذكر الجوهري في مقدمة معجمه الأسباب التي حملته على مراعاة أواخر الأصول اللغوية في ترتيب معجمه . وللباحثين تعليقات كثيرة لهذا الترتيب لاشك أن من أجدرها بالاعتبار كون هذه الطريقة تسهل على الناظرين أمر اختيار قوافيهم . ويجب ألا ننسى أن هذه الطريقة في الاعتماد على آخر الكلمة هي طريقة قديمة لأنها طريقة الخليل بن أحمد نفسه في كتاب العين وطريقة أبي زيد الانصاري في كتاب الهمز . وهذه الطريقة في الترتيب ، وإن بدت للوهلة الأولى معقدة ومعكوسة فهي سهلة جداً . وفي وسع الطالب أن يالفها بشيء من العادة والممارسة .

وقد سار على نهج الجوهري في ترتيب المعاجم فيما بعد عدد من

(١) السمر والسعبرة : البئر الكثيرة الماء .

(٢) السمر : نبت معروف ، وبعضهم يكتبه بالصاد .

(٣) السمسار : هو الوسيط في التجارة وهي لفظة فارسية معربة .

(٤) السميري : الرمح الصليب العود .

أشهر مؤلفي المعاجم كابن منظور المصري في (لسان العرب) ^(١) ومجد الدين الفيروزبادي في (القاموس المحيط) ^(٢) . وسنعود الى ذكر هذين المعجمين بعد قليل لشهرتهما وكثرة الحاجة اليهما .
وقد سمي الجوهرى معجمه **الصحيح** ^(٣) مشيراً بهذه التسمية الى حرصه الشديد على ذكر الألفاظ **الصحيحة** دون سواها . ولعله كان يرى أن من سبقه من مؤلفي المعاجم كالخليل بن أحمد وابن دريد مثلاً ، ذكروا في معاجمهم من الألفاظ ما لم تثبت صحته . والمراد بصحة اللفظة هنا أن تكون موثوقة الرواية عن العرب ^(٤) .

(١) ابن منظور المصري لغوي وأديب كبير ، اسمه محمد بن مكرم ، عاش أكثر حياته في مصر ، وتوفي في القاهرة سنة ٧١١ هـ . وقد طبع معجمه لسان العرب في مطبعة بولاق المصرية سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلداً .

(٢) مجد الدين ، محمد بن يعقوب الفيروزبادي من كبار لغويي القرن الهجري الثامن ، أصله من فيروز اباد ، وهي قرية فارسية بالقرب من شیراز . وقد طبع معجمه (القاموس المحيط) في اربعة اجزاء أكثر من مرة .

(٣) صحيح — بكسر الصاد — جمع صحيح ، وبفتح الصاد وصف بمعنى صحيح . وقد لفظ عنوان معجم الجوهرى بالوجهين .

(٤) والمعجم الصحيح مختصر لطيف جداً اسمه (مختار الصحاح) صنعه الامام محمد بن أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٧٦٠ هـ . وكان ترتيبه في الاصل كترتيب الصحاح . ولكن أحد العلماء المصريين المعاصرين وهو الاستاذ محمود خاطر أعاد تنسيق مفرداته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء نزولاً عند رغبة وزارة المعارف المصرية . وقد ظهرت أول طبعة من (مختار الصحاح) على هذه الصورة عام ١٩٠٥ م .

أشهر المعاجم التي سبق ذكرها :

لعلَّ أجدر هذه المعاجم العربية القديمة التي عرضنا لذكرها بالتنويه . ثلاثة : **أساس البلغة** للزخشي و**لسان العرب** لابن منظور المصري ، و**القاموس المحيط** لفيروزبادي . ولذا كان من المستحسن في آخر هذا الفصل أن نخص كلا منها بكلمة نبين فيها مزاياه وخصائصه .

أ - **أساس البلغة** : لهذا المعجم في نظر الأدباء والباحثين منزلة لا يشرّكه فيها معجم آخر . ذلك أن مؤلفه -- وهو من كبار علماء البلاغة -- كان ، مع عنايته ببيان المعاني الحقيقية للألفاظ ، يوجه جلَّ اهتمامه إلى بيان استعمالاتها المجازية .

ويمكن تلخيص مزايا هذا المعجم بما يلي :

- ١ - يكتفي في الغالب بذكر الألفاظ من اللغات .
- ٢ - يذكر المعنى الحقيقي للفظ أولاً ، ثم ينتقل في فقرة ثانية إلى ذكر معانيه المجازية ، فلا يمزج بين المعنيين كغيره من المعاجم .
- ٣ - لا يشرح معنى الألفاظ إلا في النادر ، وعند الضرورة . وهو يفهمنا معنى اللفظ في غالب الأحيان باستعماله إياه في أمثلة فصيحة . وهذه الطريقة جيدة وذكية لأنها تبين للقارئ معنى اللفظ وطريقة استعماله في آن واحد . واللفظة لا تكون حية ولا يتضح معناها تماماً إلا إذا كانت مستعملة في جملة . أما الاكتفاء بشرح معنى اللفظة شرحاً نظرياً فكثيراً

ما يفقد اللفظة حياتها ويجعل القارئ في حيرة من أمره إذا حاول استيعابها في حديثه أو في كتابته .

والرجوع إلى أساس البلاغة في غاية السهولة . فلنبحث عن لفظة ما نعيدها إلى أصلها بعد طرح الزوائد منها ، ثم نقش عنها في مادة هذا الأصل حسب الترتيب الهجائي المعروف ، مع مراعاة أول حرف من حروف هذا الأصل ، ثم الحرف الثاني ثم الحرف الثالث .

يبد أن هذا المعجم ، على جلالة قدره ، غير كاف ، لأنه غير مستوعب لجميع مفردات اللغة . وسبب ذلك أنه ألف لغرض بلاغي ، وهو توضيح المعاني المجازية للألفاظ وتمييزها من المعاني الأصلية الحقيقية . فهو يكاد يقتصر على ذكر الألفاظ ذات الاستعمال المجازي ، أما الألفاظ التي لا يتناولها المجاز فما أقل ما يذكرها . ولذا كان لابد للمراجع في كثير من الأحيان من الاستعانة إلى جانب أساس البلاغة ببعض المعاجم الأخرى الواسعة .

ب -- لسان العرب : هو أضخم معاجم الألفاظ العربية على الإطلاق يقع في عشرين جزءاً . وهو إلى أن يكون موسوعة لغوية وأدبية أقرب منه إلى أن يكون مجرد معجم لغوي ؛ وذلك نظراً إلى وفرة ما يحتويه من بحوث لغوية واستطرادات أدبية . يمتاز هذا المعجم بغزارة مادته واستيعابه لمعظم مفردات اللغة العربية . وهو يمتاز أيضاً بكثرة التفصيل وإيراد الوجوه واللغات والروايات المختلفة . وهو يمتاز أخيراً بذكر

المصادر التي يستمد منها، وبالأكثر من أراد الشواهد الشعرية والنثرية التي
يحتاج بها .

وهذا المعجم مرتب كما أشرنا سابقاً على طريقة الجوهري في **الصحاح**
ومراجعته سهلة؛ بيد أن المبتدئ يلاقي في الرجوع إليه أول الأمر بعض
المصاعب ، وذلك لكثرة اجزاء هذا المعجم من جهة ، ولغزارة مادته من
جهة ثانية ؛ إذ كثيراً ما يستغرق الكلام على الأصل اللغوي الواحد
ومشتقاته عدة صفحات . ولكن الممارسة المستمرة كفيلة بأن تجعل
المراجع يعثر فيه على مبتغاه بسهولة وبوقت قصير .

ب - القاموس المحيط : هذا المعجم هو أصغر حجماً وأشد اختصاراً
من لسان العرب ، ولكنه مكثف المادة جداً . فالمراجعة فيه ، ولا سيما
للمبتدئ ، تحتاج الى تدبر وانتباه شديدين . وسبب ذلك ان هذا المعجم
على صغر حجمه يجمع في أجزائه الأربعة كل مفردات اللغة التي ذكرها
اللسان في أجزائه العشرين ؛ بل ربما ذكر ألفاظاً لا نجد لها في اللسان .
وقد عمد المجد الفيروزبادي الى طريقة خاصة في التأليف استطاع معها
ان يجمع مثل هذه المادة الغزيرة في مثل هذا العدد القليل من
الاجزاء . فهو من جهة قد اكتفى ببيان معاني الألفاظ مجردة عن الشواهد
والنصوص ؛ ومن جهة ثانية أكثر من استعمال بعض الحروف
رموزاً أثناء الشرح بدلاً من بعض الكلمات التي يكثر تكرارها ،
فاستعمل م بدلاً من معروف ، و ع بدلاً من موضع ، و ج بدلاً من

جمع و جمع بدلاً من جمع الجمع ، و بدلاً من قرينة و بدلاً من بلد .
وهناك خصائص أخرى للقاموس يراها المراجع مذكورة في
المقدمة ، منها أنه لا يضبط عين المضارع المفتوحة ، ويكتفي بضبطها في
حالي الضم والكسر . ومنها أنه يقدم المشهور القصيح أولاً ثم يتبعه باللغات
الأخرى ، كما يقدم المقيس على غيره غالباً في المصادر وفي المجموع ، إلى
غير ذلك من الخصائص والمصطلحات التي يتعرفها المراجع شيئاً فشيئاً .
ولعل كثافة هذا المعجم وانته الرمزية الاصطلاحية من
الأسباب التي حملت المرتضى الزبيدي أحد علماء اللغة في القرن
الهجري الثاني عشر ^(١) على شرح هذا المعجم وتزويده بالشواهد الكثيرة ،
وذلك في معجمه المشهور تاج العروس ^(٢) الذي هو كنز من كنوز
اللغة العربية لا يقل من حيث ضخامته وغناه عن لسان العرب .

بعض ملاحظات عامة على هذه المعاجم

وإذا كان لنا ما نلاحظه على هذه المعاجم العربية الهامة ولا سيما على

-
- (١) هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، نسبة إلى زبيد (بفتح الزاي وكسر الباء)
وهي بلدة في اليمن . من كبار المصنفين في اللغة . توفي في مصر سنة ١٢٠٥ هـ
(١٧٩٠ م) . من كتبه الهامة المطبوعة (شرح إحياء علوم الدين) للغزالي .
(٢) طبع (تاج العروس) في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ في عشرة أجزاء .

الثلاثة الأخيرة منها: **اللسان والقاموس والتاج** ، فهو أنها على سعة انتشارها وشدة الحاجة إليها ما زال من حيث شكلها بعيدة عن مقتضيات العصر وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ . ولعل الناشرين يُحسنون صنعاً لو فكروا بإعادة نشر هذه المعاجم نشرًا حديثاً يقرب مأخذها دون أن يمس جوهرها بأذى ، وذلك خدمة لطلاب اللغة العربية من عرب وغير عرب ، وتوفيراً للوقت وتشجيعاً لجمهور المثقفين على الاقبال عليها والرجوع إليها بصدر منشرح . فبدلاً من أن نرى الألفاظ المشتقة من أصل واحد تتوالى في المادة الواحدة بدون ترتيب يحسن أن نُميّز هذه الألفاظ بعضها من بعض ، كأن تكتب كل لفظة منها بحرف خاص غير الحرف المستعمل في الشرح وتوضع في أول السطر ، مع بقائها ضمن المادة الواحدة .

وإذا كان لللفظة من هذه الألفاظ عدة معان ، حسن أيضاً أن يُفصل بين هذه المعاني بفواصل واضحة ؛ وبذلك يسهل على المراجع أن يعثر على اللفظة التي يريدّها وعلى المعنى الذي يبتغيه دون كبير عناء ومن غير إضاعة للوقت .

ومما يلاحظ على هذه المعاجم أيضاً - على رغم اتساعها وتعدد أجزائها - نقصها . ذلك أنها تعنى بإثبات الألفاظ القديمة بما فيها الغريب والموات ، وتبذل جهداً عظيماً في استقصائها وتوضيح معانيها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذي يحتاج به ، ولكنها تهمل في الوقت ذاته كثيراً

من الألفاظ والاستعمالات الجديدة التي تتردد في الشعر المحدث وفي المؤلفات العلمية والادبية التي ظهرت في مختلف العصور العباسية . وهذا ما حدا بعض الباحثين على جمع الألفاظ التي لم يرد لها ذكر في معاجمنا القديمة ونشرها على حدة . ولعلّ المستشرق الهولندي دوزي أشهر من عني بسدّ هذا النقص في معجمه الذي سماه *ملحق المعاجم العربية* ونشره في مدينة (ليدن) في مجلدين ضخمين في أوائل هذا القرن . ومن المفيد أن نثبت هنا بعض ما قاله هذا العالم المعروف في مقدمة معجمه المشار إليه . « لقد كان واضعو المعاجم العربية شديدي التزمّت راغبين عن كل ما لا يمت بصلة الى لغة القرن الهجري الأوّل وما قبله ، واقفين في إثباتهم لمفردات اللغة عند ذلك الزمن الذي بدأ فيه العرب يخلطون مكانهم في ركب الحضارة العالمية ويتقبلون كثيراً من الألفاظ الجديدة التي ترجع بأصولها الى اللغات الأجنبية كي يعبروا بها عن الأشياء والأفكار الجديدة . نعم ، لقد وقف واضعو المعاجم العربية باللغة عند الزمن الذي سبق المصنفات العربية الكثيرة في الجغرافية والتاريخ وشتى العلوم ، تلك المؤلفات التي تهمننا في دراساتنا أكثر من أي شيء سواها . وما أشبه المستشرق الذي يريد دراسة الحضارة العربية معتمداً على هذه المعاجم بمن يريد ان يدرس الحضارة اليونانية وأن يفهم آثار توسيديد وديموستين وأفلاطون وهو لا يملك إلا معجماً للغة هوميروس » ^(١) .

(١) هوميروس هو أشهر شعراء اليونان في العصر القديم . وإليه تنسب الملحمتان =

ربما كان في كلام هذا العالم بعض الاسراف، لأن القرآن الكريم قد أعان على ديمومة اللغة خلال العصور، وساعد على استمرار كثير من الأصول العربية القديمة في لغة آدانا وعلومنا حتى اليوم، وهي ظاهرة لم يعهدها مثل في لغة أخرى. ولكن أساس الفكرة يبقى صحيحاً من حيث نقص معاجنا القديمة بسبب إهمالها كثيراً من الألفاظ والاستعمالات المستحدثة في أزهى عصور الحضارة العربية (١).

وهناك ملاحظة أخيرة على هذه المعاجم. وهي أنها لا تعيننا على مسابقة التطور التاريخي للغة بشكل واضح. ذلك أن هذه المعاجم كما ذكرنا تقف بدافع التزمّت اللغوي عند حد زمني معين فلا تتجاوز إلى ذكر الألفاظ المولدة أو المعاني المستحدثة إلا قليلاً. وهي بهذا العمل تقطع سلسلة التطور في معاني الألفاظ قطعاً اعتبارياً. يضاف إلى هذا أن هذه المعاجم حين تشير إلى المعاني المختلفة للفظ من الألفاظ مؤيدة إياها بالشواهد الكثيرة لا تحاول أن تضبط هذه المعاني بالضوابط الزمنية؛

= المعروفتان : الإلياذة والأوديسة . ويظن انه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. أما توسيديد وديموستين وأفلاطون فأولهم مؤرخ والثاني خطيب والثالث فيلسوف. وثلاثهم من كبار رجال الفكر اليونانيين الذين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. (١) هذا مع العلم أن علماء اللغة أفردوا للألفاظ الدخيلة كتباً خاصة بها؛ ومن أشهر هذه الكتب ، (المعرب) لموهوب بن احمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ ، و (شفاء الغليل فيها في كلام العرب من الدخيل) للشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .

مع العلم أن المعاني المختلفة للفظ الواحد كثيراً ما تكون نتيجة تطور تدريجي . ولو أن معاجنا اصطغت بالصيغة التاريخية لاستطعنا بفضلها أن نعرف متى ظهرت اللفظة على وجه التقريب ، ومتى أهملت ، ومتى بُعثت حياة من جديد ، وفي أي عصر اكتسبت كلاً من معانيها المختلفة . ذلك أن اللغة كائن حي في تجدد وتطور مستمرين . فمن المفردات ما يهمل ثم ينام نومه الأبدي ، ومنها ما يهمل ثم يبعث حياً . كما أن هناك ألفاظاً ترفد اللغة من طرق شتى أجنبية ومحلية ، ومعاني جديدة تكتسبها الألفاظ القديمة . والمعجم لا يكون حياً إلا إذا كان صورة دقيقة لحياة اللغة . ولذا كانت المعاجم لدى الأمم في تجدد دائم ؛ حتى إن بعضها ليعاد طبعه بشكل دوري ، مديلاً في كل طبعة بالخواشي والزيادات حتى لا يفوته من تطور اللغة شيء . أما المعجم الذي يقتصر على ذكر ألفاظ اللغة حتى عصر معين ، فقد يصلح لدراسة إحدى مراحل تاريخ تلك اللغة ، أو لفهم النصوص المكتوبة بتلك اللغة حتى ذلك العصر . ولكن لا يمكن بحال من الأحوال اعتباره معجماً حياً شاملاً لتلك اللغة .

وظالما شعر الدارسون للغة العربية ، عرباً وغير عرب ، بحاجتهم إلى معجم تاريخي شامل لهذه اللغة . وقد حاول أحد المستشرقين الألمان (فيشر Fisher) وضع مثل هذا المعجم فوافته منيته قبل أن يستطيع تنظيم المواد التي كان دائباً في جمعها . وقد نقلت هذه المواد من ثم إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية كي يستعين بها المجمع المشار إليه في تصنيف

المعجم اللغوي التاريخي الذي تهيأ لوضعه . إذ أن المادة الثانية من مرسوم إنشاء هذا الجمع — وقد صدر هذا المرسوم عام ١٩٣٢ — تحتم عليه « أنه يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية وأنه ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها . » ولعل هذا الجمع محقق لآمال محبي اللغة العربية ذات يوم .

ولكن مهما يكن خطر هذه الملاحظات التي أبديناها فإن هذه المعاجم تبقى كنزاً من أئمن كنوز العربية ومرجعاً لا غنى للباحث المتخصص عنه . ولا يجزى عنه مرجع آخر .



الفصل الثاني

معاجم المعاني

سبق أن أشرنا الى أن معاجم المعاني ، بخلاف معاجم الالفاظ ، تفيدنا مبدئياً في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه تعبيراً دقيقاً . وهي فائدة جلية يقدرها حق قدرها كل من مارس الكتابة أو الشعر أو الخطابة أو الترجمة أو البحث العلمي . فكثيراً ما يقف الكاتب حائراً لا يدري كيف يعبر عن أحد المعاني أو المدركات الحسية . وكثيراً ما يشعر هذا الكاتب بالحاجة الى لفظ يستعمله مرادفاً للفظ آخر سبق له أن استعمله ولا يريد تكراره . وكذلك المترجمون ، فمأثر ما يصطدمون في الآثار التي يترجمونها بالفاظ أجنبية يعسر عليهم لأول وهلة إيجاد ما يقابلها . هذه العقبات وسواها يعرفها كل من مارس الكتابة لأنها تعترضه في عمله بين فترة وأخرى . وليس كمعاجم المعاني ما يذلها ويهدي الى اللفظ المنشود . وقد غني اللغويون والادباء العرب منذ بدء عهد التدوين بالتصنيف في هذا الباب . فوضعوا الرسائل المختصرة أولاً ، ثم صنفوا عدداً من المعاجم

التي تختلف من حيث الحجم والاستيعاب . فسددوا بذلك حاجة الكاتب والباحث الى حدٍ كبير .

وسنحاول هنا — شأننا في حديثنا عن معاجم الألفاظ — بيان المراحل الأساسية التي مرّت بها حركة التأليف في هذا الباب حتى انتهت الى وضع معاجم المعاني الجامعة .

المرحلة الأولى : — وهي مرحلة تأليف الرسائل الصغيرة التي يستقل كل منها بالفاظ معنًى أو جنسٍ من أجناس النبات أو الحيوان ، مثل كتاب المطر وكتاب الببأ واللهم لا بُي زيد الا نصاري ^(١) ، ومثل كتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب النساء وكتاب النخل والمكرم للأصمعي ^(٢) وغيرها كثير ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن هذه الرسائل وأوردنا نماذج منها في الفصل الأول من هذا الكتاب فراجعها هناك ^(٣) .

المرحلة الثانية ، — أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تأليف كتب أوسع حجماً وموضوعاً من الرسائل السابقة ، كتب جامعة لعدد كبير من الأبواب والمعاني ، ولكنها لا تبلغ درجة المعاجم في استيعابها وشمولها . وربما كان اللغوي المشهور يعقوب بن السكيت ^(٤) أول من ألف

(١) انظر ترجمته في ص ١٢ من هذا الكتاب .

(٢) = = ١٥ = = =

(٣) انظر ص ١٩-٢١ من هذا الكتاب .

(٤) أبو يوسف يعقوب بن اسحق المعروف بابن السكيت . لغوي مشهور توفي في بغداد في خلافة المتوكل سنة ٢٤٤ هـ . من كتبه المشهورة ، غير كتاب (الألفاظ) —

في هذا الموضوع . فلا بن السكيت كتاب معروف اسمه كتاب الألفاظ هو أقدم كتاب وصلنا في هذا الباب ^(١) وقد جعل ابن السكيت كتابه هذا في أكثر من مئة وخمسين باباً ، تناول في كل باب منها معنى من المعاني ذا كراً الألفاظ التي تستعمل في التعبير عن جميع أحوال هذا المعنى ودرجاته . وقد حاول المصنف أن يتناول في أبواب كتابه أهم أغراض الكلام مادية ومعنوية . فهناك أبواب الألفاظ الدالة على الطول والقصر والحسن والدمامة والهزال وغير أولئك من الصفات الجسمية ، كما أن هناك أبواباً للشح والغضب والكبر والذكاء والشجاعة والجبن والعقل والحق والشره والكذب والطمع وما أشبهها من الصفات الخلقية . وهناك أبواب تتصل بالجوع والعطش والنوم والمرض والسفر والاجتماع والتفرق والزواج وما إلى ذلك من أفعال وأحوال إنسانية ، وهناك أيضاً أبواب كثيرة تتصل بمظاهر الطبيعة من ليل ونهار وشمس وقمر ومياه وأزمنة وبرد وحر ، وأبواب أخرى تتصل بحوائج الإنسان ومظاهره من ثياب وحلي وسلاح وطعام وشراب وآنية ... نعم ، إن ابن السكيت لم يبلغ بكتابه هذا من حيث الأبواب مبلغ المعاجم التي

= كتاب (إصلاح المنطق) طبع في مصر عام ١٩٤٩ . وله أيضاً كتاب (الأضداد) طبع

مع عدد من كتب الأضداد المائة في بيروت عام ١٩١٣ بعناية المستشرق هفتر .

(١) طبع هذا الكتاب طبعة مزودة بالفهارس والشروح القيمة ، وذلك في المطبعة

الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٩٥ بعنوان (كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ) .

ستؤلف فيما بعد ، كما أنه لم يصنف أبواب الكتاب تصنيفاً منطقياً بل جعلها تتتابع دون ترتيب أو فكرة موجّهة . ولكنه على كل حال قد استطاع في مصنفه هذا أن يمضي بتأليف معاجم المعاني خطوة كبيرة الى الأمام . ولعلّه من المستحسن أن نثبت فيما يلي بعض المأذج نقتبسها من هذا الكتاب كي نستدل بها على الطريقة التي اتبعها المؤلف في تصنيفه . قال ابن السكيت في باب الغضب والحدة والعداوة ، وهو الباب العاشر من الكتاب ^(١) :

« الأصمعي : يقال : لقد ضَمِدَ عليه يضمِد ضَمِداً إذا غضب . قال النابغة الذبياني :

ومن عصاك فعاقيه معاقيباً تنهى الظلوم ولا تعقد على ضَمِدٍ ^(٢)
قال : وقد حَرِدَ حَرِداً ، وحَرِبَ حَرَباً إذا هاج وغضب .
وَحَرَّبَهُ فحَرَّبَ ، وحَرَّشْتَهُ وهَيَّجْتَهُ . قال الهذلي :

كَأَنَّ مُحَرِّباً مِنْ أَسَدٍ تَرَجَّجٍ يَنَازِلُهُمْ ، لِنَابِيهِ قَيْبٍ ^(٣)
قال : ويقال : أَعَدَّ عليه إغداداً - وأصله من غَدَّة البعير - ، وهو

(١) انظر ص ٧٨ من كتاب الألفاظ لابن السكيت وما بعدها .
(٢) البيت من دالية النابغة المعلقة في مخاطبة النعمان بن المنذر ، ومعنى قوله (ولا تعقد على ضَمِدٍ) أي لا تعقد مقتاً ففي قدرتك معاقيباً من عصاك .
(٣) المحرَّب : الغضبان . وترج : موضع كثير الأسد . والقيب هنا الصوت الذي يصدر عن الأنياب إذا حك بعضها على بعض .

مُغِدٌّ وَمُسْمَغِدٌ إِذَا انْتَفَخَ مِنَ الْغَضَبِ . وَوَرَمٌ وَضَرَمٌ ضَرْمًا وَاحْتَدَمَ عَلَيْهِ إِذَا تَحَرَّقَ عَلَيْهِ . وَأَصْلُهُ مِنْ احْتِدَامِ الْحَرِّ . وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَيُفِطُّ غَضَبًا وَيُقَالُ : قَدْ أَرَمَكَ ، وَأَصْمَاكَ أَيُّ غَضَبٍ . وَقَدْ أَضْفَادٌ أَضْفَادًا إِذَا انْتَفَخَ مِنَ الْغَضَبِ . وَيُقَالُ : هُوَ يَنْغَرُّ عَلَيْهِ ، إِذَا غَلِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَضَبِ . وَيُقَالُ : قَدْ تَنْغَرُّ . وَإِنَّمَا أَخَذَ مِنْ نَسْرَانِ الْقَدَرِ وَهُوَ غَلِيهَا . وَيُقَالُ : قَدْ شَرِي ، وَهُوَ أَنْ يَتِمَادَى وَيَتَبَاعَ فِي غَضَبِهِ . وَيُقَالُ : شَرِي الْبَرْقُ ، وَهُوَ يَشْرَى إِذَا كَثُرَ لِمَعَانِهِ . قَالَ طَرْفَةُ :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرْقَ يَشْرَى فِي مُلَمَّعَةٍ

كَالنَّارِ أَذْكَى لَهَا الْمُسْتَوْقَدُ السَّعْفَا (١)

... وَهَكَذَا إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَهَذَا بَعْضُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ السَّكَيْتِ فِي بَابِ الْفَقْرِ وَالْجُرْبِ ، وَهُوَ الْبَابُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ (٢) :

« قَالَ يُونُسُ : الْفَقِيرُ يَكُونُ لَهُ بَعْضُ مَا يَقِيمُهُ ، وَالْمَسْكِينُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ . قَالَ الرَّاعِي :

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفَقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدٌ (٣)

(١) الْمُلَمَّعَةُ : السَّحَابَةُ تَلْعَعُ بِالْبَرْقِ . وَالسَّعْفُ : اغْصَانُ النَّخْلِ الْيَابِسَةِ .

(٢) انْظُرْ ص ١٥ مِنْ كِتَابِ الْأَلْفَاظِ لِابْنِ السَّكَيْتِ وَمَا بَعْدَهَا .

(٣) الْحُلُوبَةُ : الَّتِي تُحْتَلَبُ ، وَفَقَّ الْعِيَالِ : كَافِيَةٌ لِلْعِيَالِ ، لَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدٌ : لَمْ يُتْرَكْ لَهُ شَيْءٌ . وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَشْكُو بِهَا الرَّاعِي إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ظَلَمَ السَّعَاةَ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا لِلْفَقِيرِ شَيْئًا .

قال : وقلت لأعرابي : أفقير أنت أم مسكين ؟ فقال : لا والله ، بل مسكين ، قال أبو زيد : ومنهم المُقْتَر وهو المُحْوَج والمُقِل ، وهو الإِقتار والإِقلال والإِحْوَاج ، وهو شيءٌ واحد وهو من الفقر ، وفيهِنَّ بقية من نشب لا يغمره ولا يغمر عياله . ويقال للمُقْتَر : إن به خصاصة . والمُخِلّ مثل المقتَر . يقال : أَخْلَلْ يُخِلُّ إِخْلَالاً ، والاسم الخلة . والمعوز قريب من الخل وهو أسوأهما حالاً ، يقال : أعوز يُعوز إِعْوَازاً ، والاسم العِوز . ويقال في الفاقة : إنه لمُفتاق ، وإنه لذو فاقة . وفي الحاجة : إنه محتاج ، وإنه لذو حاجة وإنه لمسكين ، (وليس فيها فعلٌ ، وحكى الفراء : هو يتمسكن لربه) . ومنهم المُعْدِم ، يقال : أَعْدَمَ يُعْدِمُ إِعْدَاماً ، الاسم العُدْم . ومنهم الصعلوك وهو الذي ليس له شيءٌ ، (وليس فيها فعل . وحكى غيره : تصعلك) . ويقال : إن به لفاقة وإنه لذو فاقة ، وإن به خصاصة ، وإنه لذو خصاصة . ومنهم السبروت ، وهو مثل الصعلوك ، وامرأة سبروتة ...

أبو زيد : ومنهم الفقير المدقع وهو الذي لا يتكبر عن شيءٍ أخذه وإن قل . وأدقع فلانٌ إلى فلان في الشئمة وفي أي فعلٍ ما كان . وأدقع له . قال الأصمعي : المدقع الذي لصق بالدقعاء وهي التراب . أبو زيد : ومنهم القانع وهو الذي يتعريض لما في أيدي الناس . يقال : قد قَنَعَ فلان إلى فلان قنوعاً ، وهو ذم ، وهو الطمع حيث كان . الأصمعي : القانع السائل والقنوع المسألة . قال الشماخ :

لمالُ المرء يصلحه فيُغني مفاقره أعف من القنوع (١)
..... وهكذا إلى آخر هذا الباب .

تتضح من هذه النماذج القليلة التي أثبتناها خصائص طريقة ابن السكيت في كتابه هذا . فهو يحاول في كل باب يعقده لمعنى من المعاني أن يستقصى جميع الألفاظ التي تستعمل في ذلك المعنى . وهو في هذا الاستقصاء يأتي على كثير من الألفاظ المتداولة المأنوسة ، كما يذكر كثيراً من الغريب والمهجور . ومما يستحق الثناء أيضاً عناية المصنف بذكر مصادره فهو يكثر من الإشارة إلى العلماء الذين ينقل عنهم كالأصمعي وأبي زيد ويونس بن حبيب وغيرهم . كما أن حرصه على الاستشهاد لمعاني الألفاظ التي يذكرها بالشعر الجيد الموثوق أمرٌ جدير بالثناء أيضاً . وإن كان لنا ما نأخذه عليه فهو أن شروحه وتفسيره تبقى في كثير من الأحيان غير كافية لبيان الفروق بين المترادفات التي يوردها .

والكتاب الثاني الذي يستحق الذكر في هذا الباب هو **الألفاظ الكناية** لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني (٢) . وهو كتاب من كتب

(١) المقصود باصلاح المال الاقتصاد وترك الاسراف . والمفاقر : الفقر .

(٢) أديب واعوي توفي نحو سنة ٨٣٢ هـ . وقد طبع كتابه (الألفاظ الكناية) عدة طبعات أجودها طبعة بيروت عام ١٨٨٥ بعناية لويس شيخو . وتمتاز هذه الطبعة بمفتاح للكتاب مرتب على حروف المعجم في نحو أربعين صفحة يستدل به الطالب على مواطن العبارات والألفاظ التي ينشدها .

المعاني لطيف مختصر يمثل كسابقه هذه المرحلة الثانية من مراحل حركة تأليف معاجم المعاني .

وقد حذا الهمذاني حذو ابن السكيت في تقسيم كتابه إلى أبواب كثيرة العدد يختص كل منها بمعنى من المعاني . والموضوعات في الكتابين تكاد تكون متقاربة من حيث العدد والغرض . والفارق الرئيسي بين الكتابين أن الهمذاني لم يعن بالمفردات واستقصاها كما فعل ابن السكيت ، بل كان همه في التراكيب والعبارات . فقد اختار جل مادة كتابه مما يرد على أقلام الكتاب المشهورين من عبارات جميلة وازدواجات بارعة . وغايته من ذلك خدمة الكتاب الناشئين وزويدهم بما يحتاجون إليه في صناعاتهم من مختارات جيدة تتصل بمعظم أغراض الكلام . ومن هنا كان عنوان الكتاب : *الولفاظ الكتابية* ، إذ أنه من الكتاب واليه . وقد صرح الهمذاني بغرضه هذا في مقدمة كتابه التي يقول فيها : « الكتابة من أعلى الصناعات وأكرمها وأسمىها بأصحابها إلى معالي الأمور وشرائف الرتب ، فهم بين سيد ومدبر سيادة ، وملك وسائس دولة ومملكة . وبلغت بقوم منهم منزلة الخلافة وأعطتهم أزيمة الملك . والمتصرفون فيها في الحظ منها بين متعلق بالسماك مضاء ونفاذاً ، وبين منكس في الحضيض نقصاً وتخلفاً . . . ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغربية والحرف الشاذ ليميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عند

الأغبياء عن طبقة الحشو . والخِرس والبكم أحسن من النطق في هذا المذهب الذي تذهب إليه هذه الطائفة في الخطاب فجمعتُ في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذاهب الكتاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشددين والمتفاسحين من المتأدين والمؤدبين المتكفين ، البعيدة المرام على قربها من الأفهام ، في كل فنٍّ من فنون المخاطبات ، ملتبطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال وعَرَصات الدواوين ومحافل الرؤساء ، ومتخيرة من بطون الدفاتر ومصنّفات العلماء . فليست لفظتها منها إلا وهي تنوب عن أخيها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المحاورة إمّا بمشاكل أو بمجانسة أو بمجاورة . فاذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية وعوناً وظهيراً الخ »

ويظهر أن هذا الكتاب قد أصاب الغرض الذي كان يرمي به إليه مؤلفه ، فتلقفته أيدي الكتّاب الناشئين وأفادوا منه في صناعاتهم فائدة جليّة مما جعل كاتب البويهيين ووزيرهم المشهور صاحب بن عباد يقول : « لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنّف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده . » فسئل عن السبب فقال : « جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة . »

وليثبت فيما يلي نموذجاً نختاره من هذا الكتاب ليدرك القارئ الفارق الذي أشرنا إليه وبين سابقه .

قال الهمذاني في الباب الأول من كتابه بمعنى : أَصْلَحَ الفاسد .

« تقول : لَمْ فلان الشَّعَثَ ، وَضَمَّ النُّشْرَ ، وَرَمَّ الرُّثَ ، وَسَدَّ الشَّغْرَ ، وَرَقَعَ الحَرْقَ ، وَرَتَقَ الفَتَقَ ، وَأَصْلَحَ الفاسدَ ، وَأَصْلَحَ الحَلَلَ ، وَجَمَعَ الشَّتَاتَ ، وَجَبَرَ الوَهْنَ والوهيَ جميعاً . (يُقال : جَبَرْتُ الكسرَ جبراً وأَجَبَرْتُ فلاناً على الأمرِ إجباراً) ويُقال : أَسَأَ الكلامَ (مقصور) يَأْسُوهُ أسوأً ، وَأَسَى على مصيبتِهِ أي حزنَ يَأْسَى أَسَى ... ويُقال : شَعَبَ الصَّدْعَ ، وَرَأَبَ الصَّدْعَ ، وَرَأَبَ الثَّأْيَ ^(١) رَأَباً (أَخَذَ مِنَ الرَّوْبَةِ ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ خَشَبٍ تُدْخَلُ فِي الْجِفْنَةِ إِذَا انْكَسَرَتْ تُصْلَحُ بِهَا ؛ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْانْصَارِي ^(٢) :

طَعَنَّا طَعْنَةَ حَمْرَاءَ فِيهِمْ حَرَامٌ رَأَبُهَا حَتَّى الْمَمَاتِ .

ويقال : شَعَبْتُ الأمرَ إِذَا أَصَابَتْهُ وَشَعَبَتْهُ إِذَا أَفْسَدَتْهُ أَيْضاً ، وَهَذَا مِنَ الْإِضْطِدَادِ ، وَالشَّعُوبُ الْمُنِيَّةُ لِأَنَّهَا تَشَعَّبُ أَي تَفَرَّقُ . وَفِي الْمَثَلِ : إِنَّ دَوَاءَ الشَّقِّ أَنْ تَحْوِصَهُ ، أَي تَخِيْطَهُ . وَسَدَّ الثَّلْمَةَ ، وَأَقَامَ الْأَوْدَ وَسَدَّ الْفُرْجَ وَالْحَلَلَ ، وَأَقَامَ الصَّعْرَ وَلَا تُمُّ الصَّدْعَ . وَالْوَصْمَ وَالْحَلَلَ

(١) الثَّأْيُ وَزَانُ السَّعْيِ ؛ وَالثَّأْيُ وَزَانُ الثَّرَى كِلَاهُمَا بِمَعْنَى الْفَسَادِ وَالصَّدْعِ .

(٢) هُوَ صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ وَمِنْ أَكْبَرِ شُعَرَاءِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِينَ . تَوَفَّى سَنَةَ ٥٥٥ هـ .

والفساد والفتق واحد ، ويقال : أخاف وقوع الوَصم في هذا الأمر . وقوم الميل وثقف الأود والعوج ، وداوى السقم ، وداوى الأُدواء وحَسَم الداء وسوَّى الزينغ . والمَيْل فيما كان خلقة فيقال : في عنقه مَيْل . والمَيْل فعْلُك ، وميلك إلى الشيء . وإذا زدت في اللفظ قلت : رأب متباين الصدع وضم متفرق النشر الخ »

نتبين بسهولة من هذا النص أن الفكرة التي كانت توجه الهمداني في كتابه هذا هي غير تلك التي كانت توجه سلفه ابن السكيت في كتابه الذي مرّ ذكره . فعمل الهمداني في (الألفاظ الكتابية) قائم على الانتقاء . فهو يصطفي العبارات التي تعود الكتاب استعمالها ويثبتهامترادفة في كل باب من أبواب كتابه . أما الألفاظ المفردة فما أقل ما يعنى بذكرها . وهو في عمله هذا أديب بين الذوق ، لا تكاد تلمح بين مختاراته لفظة مهجورة أو تعبيراً غريباً . على عكس ابن السكيت الذي كان في مصنفه لغوياً معجماً قبل كل شيء ، فعمله قائم على الاستقصاء والاستيعاب ، وهو يثبت كل لفظة بالمعنى المراد حتى ولو كانت مهجورة أو نائية . والكتاب الثالث والأخير الذي نذكره مثلاً لما ألف من الكتب في هذه المرحلة هو كتاب الألفاظ أو هو الألفاظ مؤلفه قدامة ابن جعفر (١) .

(١) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي كاتب وناقد وأديب مشهور . كان نصرانياً وأسلم على يد المكيستفي بالله العباسي ، وتوفي بعد سنة ٣٢٠ هـ . من كتبه —

ألف قدامة كتابه هذا بعد أن ألف الهمداني كتابه **الرفايع** **الكتابية** الذي تحدثنا عنه ويظهر أن كتاب الهمداني لم يرق في عين قدامة كثيراً. ذلك أن قدامة شديد الولوع بالبديع . وولوعه هذا واضح غاية الوضوح في كتابه المشهور **نقد الشعر** الذي غني فيه بذكر عدد كبير من المحسنات اللفظية والمعنوية التي لم يذكرها قبله أحد . وكتاب الهمداني ، على غناه بالتراكيب الجميلة ، لا يُشبع نهم الكاتب البديعي المغرم قبل كل شيء بالازدواجات والاضجاع . وقد أشار قدامة بن جعفر بصراحة الى هذا في مقدمة كتابه معتبراً إياه نقصاً ، وذلك حين يقول : « هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معانٍ متفقة مؤتلفة وأبواب موضونة ، بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الاوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، تونق أبصار الناظرين ، وتروق بصر المتوسمين . وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وتنفسح معها بلاغة الكتاب . لان مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد الموشع : يعد أكثر أصنافه ، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه . وقد ألف للألفاظ غير كتاب ، فقيل : أصلح الفاسد ، وضم النشر ، وسد الثلم ، وأسأل الكلام ^(١) . فوزن (أصلح الفاسد)

— المطبوعة كتاب (الخراج) وكتاب (نقد الشعر) . أما كتابه (جواهر الألفاظ) فقد طبع عام ١٩٣٢ في مصر بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(١) الإشارة هنا واضحة الى كتاب (الألفاظ الكتابية) فهذه العبارات وردت في أول

باب من أبوابه .

مخالف لوزن (ضم النشر) وكذلك (سدّ) و (أسا) . ولو قيل : أصلح
الفاسد وألف الشارد وسدّد العائد ، وأصلح ما فسد وقوم الأود ،
أو قيل : صلح فاسده ورجع شارده ، لكان في استقامة الوزن واتساق
السجع عوضٌ من تباين اللفظ .^(١)

وعلى هذا الأساس من العناية بالسجع والتوازن بني قدامة كتابه
الضخم ، فرصف العبارات المترادفة جنباً إلى جنب مسجوعة متوازية .
ولأنشك أن كتاب القرن الرابع والعصور التالية وجدوا في هذا الكتاب
معيناً لا ينضب لفهم المتكاسف ، ومادة تؤمن لهم ما يحتاجون إليه
من ازدواج في التعبير ، ذلك الازدواج الذي كان ركناً من أركان
الكتابة آنذاك .

ولا بأس أن نذكر هنا على سبيل الموازنة ما أورده قدامة في الباب
الأول من كتابه بمعنى أصلح الفاسد ، بعد أن أوردنا ما ذكره
الهمداني في هذا المعنى ، وبذلك يفسح أمام القارئ باب المقارنة بين
الكتابين ، قال قدامة :

« يقال : أصلح الفاسد ، وحصد المعائد ، وأقام المائد ، وقوم الحائد ،
وردّ الشارد . ولمّ الشعث ، وكفّ الحدث ، ورمّ ما شذّ وانتكث .
وضمّ النشر ، وجانب الشرّ والاشرّ . ورمّ الرث ، ووصل ما قطع
واجتث . وجمع الشتات ، وهجر الظلم والاعتات . وأعاد المهدم ، وداوى

السَّقَم ، وأَسَا الكَلَم . ورتق الفتق ، ورقع الوهي والخرق . وشعب
الصدع ، ورأب القطع . ورأب الثأبي ، ورتق الوهي . وحاص
الشَّق ، وألحم الفتق . وسدّ الثلمة ، وكشف الغمّة . وسدّ الفرج ،
وسكّن الرّهج . وأقام الأود ، وطمس الكفر والعند . وسدّ الحلل ،
وردّ الحجل ، وثقف الحطل ، وعدل الميل ، ونفى الوجّل . وأقام
الصّعر والصّور ، وثقف الزيغ والزور ... الخ » .

وواضح بعد هذا أننا قد ابتعدنا في مثل هذه النصوص المزخرفة عن
الفكرة المعجمية . فالشروح لا وجود لها ، وليس هنالك بيان لما بين
معاني هذه المترادفات من فروق . وإذا كان في رصف العبارات على هذا
النمط فائدة وخدمة للكتّاب حين كانت صناعتهم قائمة على أصول من
الزينة والمهارة اللفظية ، فإن هذه الفائدة تتضاءل في عصرنا بعد أن أصبح
فن الكتابة قائماً على مسايرة الفكرة ، والاقتصاد كلّ الاقتصاد في
الزخرف ، والعناية كلّ العناية في دقة التعبير .

وليس من شكّ بعد هذا في أن كتاب اللفاظ لابن السكيت —
على سبقه للكتب الأخرى — يبقى في نظرنا جدى الكتب الثلاثة التي
ذكرناها ، وأحفلها بالفائدة لبني زماننا ، وأقربها إلى فكرة المعجم .

المرحلة الثالثة . — أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي المرحلة الختامية ،
أي مرحلة تأليف معاجم المعاني حقاً . ذلك أن الكتب الثلاثة التي

ذكرناها أثناء كلامنا على المرحلة السابقة، على رغم تعدد أبوابها، لا يمكن اعتبارها معاجم حقيقية ؛ فهي بعيدة عن الاستيعاب والشمول من جهة ، كما أنها من جهة ثانية لم يلتزم في تصنيفها وتنسيق أبوابها نظام معين . وهاتان الصفتان : الشمول والترتيب شرطان ملازمان لفكرة المعجم .

أما كتب المعاني التي ألفت في المرحلة الثالثة فقد استطاعت تحقيق هذين الشرطين الى حد كبير، فخطت بذلك حركته تأليف المعاجم خطواتها الأخيرة في طريق النمو الطبيعي وبلغت غايتها من التكامل والنضج . وأشهر الكتب التي تمثل في نظرنا هذه المرحلة تمثيلاً صحيحاً اثنان هما : **فقه اللغة للثعالبي** ^(١) ، و**المخصص** لابن سيده الأندلسي ^(٢) . وقد ظهر أولهما في أواخر القرن الهجري الرابع وثانيهما خلال النصف الأول من القرن الخامس . وسنتحدث عن كل منهما حديثاً موجزاً فيما يلي :

فقه اللغة . - استقى الثعالبي مادة كتابه - كما ذكر في مقدمته - من كتب

(١) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ، ولد في منتصف القرن الهجري الرابع وتوفي سنة ٤٢٩ هـ . يعد من أشهر أدباء زمانه . من اذيع تصانيفه صيماً كتاب (يتيمة الدهر) الذي أرخ فيه لشعراء عصره وجمع فيه نخبة صالحة من اشعارهم . أما كتابه (فقه اللغة) فمعروف كثير التداول ، طبع حتى اليوم في مصر وفي لبنان عدة طبعات .

(٢) : سبقت ترجمة ابن سيده في هذا الكتاب ص (٢٥) حاشية (٢) . أما كتابه (المخصص) فقد طبع في المطبعة الاميرية بمصر في ١٧ جزءاً بين عامي ١٣١٦-١٣٢١ هـ .

أئمة اللغة أمثال الخليل ، والاصمعي وابي عمرو الشيباني والكسائي والفراء
وأبي زيد وأبي عبيدة وابن الأعرابي والنضر بن شميل وابن دريد وابن
خالويه والأزهري وغيرهم . فجاء كتابه بعد جهدٍ طويل جامعاً وافياً ،
يمتاز فقه اللغة أولاً بحسن ترتيبه . فهو مقسوم الى ثلاثين باباً
كبيراً ، كل منها يتناول معنىً من المعاني الأساسية . وكل باب مقسوم
بدوره الى عدد من الفصول الصغيرة يجمع كلُّ منها الألفاظ المستعملة
في التعبير عن فرعٍ من فروع المعنى الأصلي الذي عُقد عليه الباب كله .
فالباب العشرون من الكتاب مثلاً موضوعه الأصوات وحكاياتها .
ويضمُّ هذا الباب ثلاثة وعشرين فصلاً ينطوي كلُّ منها على الألفاظ
المستعملة في التعبير عن نوع معين من الأصوات : ففصل في الأصوات
الخفية ، وفصل في الأصوات الشديدة ، وفصل في أصوات النائم ، وفصل
في أصوات الخيل ، وفصل في أصوات السباع ، والوحوش ، والطيور ،
والحشرات ، والماء والنار ... الخ . والباب الرابع عشر من الكتاب
موضوعه أعمار الناس والدواب . ويضمُّ هذا الباب سبعة عشر فصلاً
يتناول كلُّ منها شعبة من شعب الموضوع الأساسي : ففصل في ترتيب
سن الغلام ، وآخر في ظهور الشيب ، وثالث في الشيخوخة والكبر ،
وفصل في ترتيب سن المرأة ، وفصل في أسماء صغار مختلف الحيوانات ،
وفصل في ترتيب سن كل من البعير والفرس والبقرة والوحشية والشاء
والعنز والظبي ... الخ . وليس من شك في أن هذا الترتيب يسهّل

الى حد كبير الرجوع الى الكتاب والافادة منه .
ويمتاز فقه اللغة أيضاً من كثير من كتب المعاني التي سبقته بأنه
ككتاب ابن السكيت، يوجه عنايته إلى إيراد الألفاظ المفردة لا إلى
التراكيب المنتقاة ، وبأنه يبذل وسعه في سبيل تحديد مدلولات هذه
الألفاظ وبيان ما بينها من فروق .

وهذه أمثلة من الكتاب توضح مزاياه التي أشرنا إليها :
جاء في الفصل الثالث عشر من الباب الخامس عشر في تفصيل كيفية النظر
وهيئاته في اصطوف أحواله : (١)

« إذا نظر الانسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل : رمقه . فإن نظر إليه
من جانب أذنه قيل : لحظه . فإن نظر إليه بمجلة قيل : لمح . فإن رماه
ببصره مع حدة نظر قيل : صرمه بطرفه ، (وفي حديث ابن مسعود :
حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم) . فإن نظر إليه بشدة وحدة قيل
ارمقه وأسف النظر إليه . فإن نظر إليه نظر المتعجب منه والكاره له والمبغض
إياه قيل : سقمه وسقم إليه شفوئاً وشقناً . فإن أعاره لحظ العداوة قيل :
نظر إليه سراً . فإن نظر إليه بعين المحبة قيل : نظر إليه نظرة ذي علي (٢) .
فإن نظر إليه نظر المستثبت قيل : توضم . فإن نظر واضعاً يده على

(١) انظر ص ٩٧ فما يلي من كتاب فقه اللغة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٣

(٢) أي : ذي علاقة وهي الهوى .

حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور إليه قيل : استكشف ، واستوضحه واستسرفه . فإن نشر الثوب ورفع له لينظر إلى صفاقته ^(١) أو سخافته ^(٢) ويرى عواراً ^(٣) إن كان به قيل : استصفه . فإن نظر إلى الشيء كاللمحة ثم خفي عنه قيل : روم لوحه ، كما قال الشاعر : « وهل تنفعني لوحه لو ألوحها ؟ » فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل : نفصه نفصاً ، فإن نظر في كتاب أو حساب ليهذهبه ويستكشف صحته وسقمه قيل تصفمه . فإن فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل : صرق . فإن لاًلأهما قيل : برق . فإن انقلب حلاق ^(٤) عينه قيل : صمق . فإن غاب سواد عينه من الفزع قيل : برق بصره . فإن فتح عين مفزع أو مهدد قيل : صمج . فإن بالغ في فتحها وأحد النظر عند الخوف قيل : صرج . فإن كسر عينه في النظر قيل : دنقس وطرفس (عن أبي عمرو) ^(٥) . فإن فتح عينه وجعل لا يطرف قيل : سغص . (وفي القرآن :

(١) أي : متأنه وكثافة نسجه .

(٢) أي : رقّة نسجه .

(٣) العوار — بفتح العين وضمها — خرق أو شق في الثوب أو عيب فيه .

(٤) اختلف في معنى الحلاق ف قيل هو ما تغطيه الجفون من بياض العين ، وقيل

بل هو باطن الاجفان .

(٥) أي : أبي عمرو اسحاق بن مزار الشيباني وهو راوية ولغوي مشهور توفي

فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا (١). فإن أدام النظر مع سكون
 قيل : أُسِمَ (عن أبي عمرو). فإن نظر إلى أفق الهلال ليلته ليراه قيل :
 تبصره . فإن أتبع الشيء بصره قيل : أنأره البَصَرُ وأنأره اليه . « اه .
 وجاء في الفصل الخامس والعشرين من الباب التاسع عشر في تفصيل

الطيران واسطر وهبياته : (٢)

« إذا حرك الطائر جناحيه ورجلاه بالأرض قيل : وف ، فإذا طار
 قريباً على وجه الأرض قيل : اسف . فإذا كان مقصوداً وطار كأنه
 يرد جناحيه إلى ما خلفه قيل صرف (ومنه سمي مجداف السفينة) . فإذا
 حرك جناحيه في طيرانه قريباً من الأرض وحام حول الشيء يريد أن
 يقع عليه قيل : رفرف ، فإذا بسط جناحيه في الهواء وسكنهما فلم يحركهما
 كما تفعل الحدأة والرخم (٣) قيل : صف (وفي القرآن : والطير
 صافات) (٤) . فإذا ترمى بنفسه في الطيران قيل : زف زفيفاً ، فإذا
 انحدر من بلاد البرد إلى بلاد الحر قيل : قطع قطوعاً وقطاعاً . يقال :
 كان ذلك عند قطاع الطير .

هذه الأمثلة التي أوردناها توضح ما سبق أن أشرنا إليه من مزايا

(١) سورة القلم ، الآية : ٤٤ ، وسورة المعارج ، الآية : ٤٥ .

(٢) انظر : فقه اللغة ، ص : ١٩٢ .

(٣) الحدأة جمع حدأة وهي طائر معروف من الجوارح نسميه (الشوحة) .

والرخم جمع رخم وهي أيضاً من أنواع الجوارح .

(٤) سورة النور ، الآية : ٤٢ .

فقه اللغة . فليس هم الشعالي إيراد المفردات في كل فصل من فصول كتابه على أنها مترادفات ليست لفظاً منها الا وهي تنوب عن اختصارها في موضعها من المطبوعة او تقوم مقامها في المحاوره ، كما يقول الهمداني في مقدمة الالفاظ الكنايية ، بل هو كما قلنا يحاول جهده أن يحدد مدلول كل لفظة ، وموطن استعمالها ، والفرق بينها وبين ما يمكن اعتباره مرادفاً لها .

ولا شك في أن مثل هذا الكتاب الثمين لا يمكن أن يصدر إلا عن فقه اللغة العربية تمام الفقه وتمثلها أكمل تمثل . وهو من جهة ثانية يظهرنا على ما تمتاز به اللغة العربية في كثير من المعاني من قدرة على التعبير الواضح وملاحظة للفروق الدقيقة بين المفاهيم المتقاربة ، تلك الفروق التي كثيراً ما تقف اللغات الاخرى حائرة دون التعبير عنها .

المختص . - أما كتاب **المختص** لابن سيده الأندلسي فهو أضخم معجم للمعاني تعرفه المكتبة العربية ؛ نثر فيه المؤلف كل ما ألف قبله من رسائل ومعاجم . وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب حين عدد مصادره فقال : « فأما ما نثرت عليه من الكتب فالمصنف في غريب الحديث لأبي عبيد ^(١) ، وجميع كتب يعقوب ^(٢) كالأصالح والألفاظ . . . وكتابا

(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، من شيوخ الحديث والفقه واللغة ، ولد في هراة سنة ١٥٧ هـ ، وولي قضاء طرسوس ، ورحل الى مصر وبغداد ، وحج فتوفي في مكة سنة ٢٢٤ هـ . وكتابه في (غريب الحديث) من أجل ماوضع في بابه .

(٢) هو ابن السكيت وقد سبقت ترجمته في ص (٤٥) ، حاشية (٤) .

ثعلب (١) الفصيح والنوادر ، وكتابا أبي حنيفة (٢) في الاثنواء والنبات .
وغير ذلك من كتب الفراء (٣) والاصمعي (٤) وأبي زيد (٥) وأبي
حاتم (٦) والمبرد (٧) وكراع (٨) والنضر (٩) وابن الأعرابي (١٠)
واللحياني (١١) وابن قتيبة (١٢) وما سقط إليّ من ذلك . وأما من الكتب

(١) هو احمد بن يحيى الشيباني ، الملقب بثعلب ، امام الكوفة في اللغة والنحو
في عصره توفي ببغداد سنة ٢٩١ هـ . طبع كتابه (الفصيح) في اوربا ثم في مصر .
ولا يعرف لثعلب كتاب باسم النوادر . ولعل ابن سيده يشير الى كتاب (النوادر) لابن
الاعرابي الذي رواه عنه تلميذه ثعلب .

(٢) : هو ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري من كبار علماء القرن الهجري الثالث
توفي نحو سنة ٢٨٢ هـ .

(٣) هو يحيى بن زياد المعروف بالفراء من أئمة الكوفة في اللغة والنحو توفي
نحو سنة ١٦٠ هـ .

(٤) سبقت ترجمة الاصمعي في ص (١٥) ، حاشية (٢)

(٥) سبقت ترجمة ابي زيد الانصاري في ص (١٢) حاشية (١)

(٦) ، (٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) ، (١١) ، (١٢) : ابو حاتم سهل بن محمد
السجستاني المتوفي سنة ٢٤٨ هـ ، وابو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفي سنة ٢٨٦ هـ ،
وعلي بن الحسين الرؤاسي الملقب بكراع النمل المتوفي نحو سنة ٣٠٧ هـ ، وابو الحسن
النضر بن شميل التميمي المازني المتوفي سنة (٢٠٣) هـ ، وأبو عبد الله محمد بن زياد
المعروف بابن الاعرابي المتوفي سنة ٢٣١ هـ ، وابو الحسن علي بن حازم اللحياني المتوفي
سنة ٢١٥ هـ ، وابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ ، كلهم من مشهوري
علماء اللغة والادب ، عاشوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولهم جميعاً مصنفات
لغوية أفاد منها ابن سيده في تأليف (المخصص) .

المجنّسة (١) فالجمهرة (٢) والعين (٣) وهذا الكتاب الموسوم بالبارع
صنعة أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي المغوي (٤) الوارد على بني أمية
بأندلس وو... وو...» (٥).

وهذا الثبوت الطويل من المصادر يدلّ على أن المؤلف لم يدّخر وسعاً
لجعل كتابه كاملاً شاملاً .

ولعلّ المخصّص هو أحسن كتب المعاني القديمة التي بين أيدينا تبويهاً .
فهذا المعجم مقسّم إلى عددٍ من الكتب المسهبة تحمل العناوين التالية :
خلق الانسان ، الغرائز ، النساء ، اللباس ، الطعام ، الأمراض ،
المنازل ، السلاح ، الحيل ، الإبل ، الغنم ، الوحوش ، الحشرات
الطير ، الأنواء والسماء والفلك ، الدهور والأزمنة ، الأهوية والرياح
والماء ، النخيل والنبات ، المعادن ... الخ .

وكل كتاب من هذه الكتب يُقسم إلى أبوابٍ بعدد ما يحتمل المعنى

(١) : أي معاجم الألفاظ المرتبة على الحروف .

(٢) : أي (جمهرة) ابن دريد . وقد سبق الكلام على هذا الكتاب ومؤلفه
في الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) : أي (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي . وقد سبق الكلام
عليه وعلى مؤلفه في الفصل الأول أيضاً .

(٤) : سبقت ترجمة القالي في ص (٢٤) ، حاشية (٢) .

(٥) : انظر مقدمة المخصّص ، ص ١٢ .

الأصلي من فروع . وهذه الطريقة شبيهة بطريقة الشعالي قبله في فهم المعجم ،
إلا أنها أكثر إحكاماً . فنظرة واحدة إلى عناوين الفصول التي ذكرناها
ترينا كيف ينتقل المؤلف من الانسان وطبائه وحوادثه إلى الحيوان ، بادئاً
بالصق فصائله بالانسان . فإذا انتهى من السكائنات الحية انتقل إلى
الحديث عن السماء والزمان وعوارض الطبيعة من رياح ومياه وبحور ،
ثم إلى الكلام على النباتات والمعادن ... وهكذا إلى آخر الكتاب .
نعم ، إن القارئ لهذا المعجم لابد أن يلحظ في تتابع فصوله وأبوابه
بعض الخلل من آن إلى آخر . ولكنه يظل كما قلنا - ولو من حيث
الخطوط الكبرى - خير معاجنا الكبرى ترتيباً . وقد أشار ابن سيده
في مقدمة معجمه إلى حرصه على تنظيم أبوابه واعتماده بهذا
التنظيم فقال :

« فأما فضائل هذا الكتاب من قبل كيفية وضعه ، فمنها تقديم
الأعم فالأعم على الأخص فالأخص ، والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحقه من
الجزئيات ، والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحقه من
التقديم والتأخير ، وتقديمنا كم على كيف ، وشدة المحافظة على التقيد
والتحليل . مثال ذلك ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت في
القول على خلق الانسان ، فبدأت بتقلبه وتكوّنه شيئاً فشيئاً ، ثم أردفت
بكلية جوهره ، ثم بطوائفه وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته ،
ثم ما يلحقه من العظم والصغر ، ثم الكيفيات ، كالألوان ، إلى ما يتبعها من

الأعراض والحُصَال الحميدة والذميمة ...» (١).

وهنا لابد لنا كعادتنا من إيراد بعض المأزج نقتبسها من هذا الكتاب القيم كي تتكون لدى القارئ فكرة صحيحة عن طريقة المؤلف ،
قال في فصل الجنون (٢) :

« صاحب العين : هي الجنّة والمجنّة والجنون ، جنّ وأجنّه الله فهو مجنون ... أبو عبيد : اللّمّ والمسُّ من الجنون . ورجل ملهوم وممسوس وهو من الجنون . ابن دريد : بفلان خطرّة من الجنّ ، أي مسّ منه . أبو علي : خاطر من الجنّ كذلك . ابن الأعرابي : خبطةٌ من مسّ . قال : والشيطان يخبط الأيّسان ويتخبّطه إذا مسّه بأذى فأجنّه وخبله . ابن دريد : الحُباطُ داءٌ كالجنون . وقال : رجل به سَفْعَةٌ من الجنّ ، أي مسّ . أبو عبيد : الأوّلق - الجنون ، رجل مألوق ومؤوّلق .. ابن دريد : ألقَ الرجل ألقاً ، والألقُ نحو الجنون . أبو زيد : ألقه الله يألّقه ألقاً . أبو عبيد : العلّة الذي يتردد متحيراً ، والمتبلّد مثله ، وأنشد :

عَلَيْتَ تَبْلَدُ فِي نِهَاءِ صُوعِقٍ سَبْعاً تُؤَامَا كَابِلًا أَيَامَهَا (٣)

(١) انظر مقدمة (المخصص) ص ١٠

(٢) المخصص ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

(٣) البيت للبدي بن ربيعة من معلقته ، وهو في وصف البقرة الوحشية التي أكل

السبع ولدّها . فالعله والتبلد معناهما الحيرة والتردد . و (نهاء) جمع (نهى) وهو =

والأفكل - الرعدة ... أبو عبيد : الطيف - الجنون ، وأنشد :

فإذا بها - وأبيك - طيف جنون

أبو عبيدة : طيف من الشيطان ، أي يُلمّ به لَمّاً . قال أبو علي :

فقد ثبت مما حكاه أبو زيد من قولهم طاف يطيف طائفاً أن الطائف مصدر

بمعناه مثل العافية والعاقبة ونحو ذلك مما جاء فيه فاعل وفاعلة ، وأنشد :

وتصبح عن غبّ السرى وكأنها ألمّ بها من طائف الجنّ أو لقي ...

ابن السكيت : الحبل - الجنّ ، وبه خبلّ أي شيء من أهل الأرض -

يعني بأهل الأرض الجنّ - . ابن دريد : الحبل والحبل من الجنون ،

صاحب العين : وهو الحابل . ابن دريد : الحلاع كالحبل يصيب الانسان ..

وهكذا إلى آخر الفصل . »

وقال في فصل الشجاعة ^(١) :

« صاحب العين : الشجاعة شدة القلب عند البأس . ابن السكيت :

رجل شجاع وشجاع وامرأة شجاعة وقد تكون الشجاعة في القوي

والضعيف . صاحب العين : رجل شجاع وشجع وأشجع وامرأة شجعاء

وشجعة وشجيعة . ابن السكيت : قوم شجعاء وشجعان وشجعان ...

= الغدير . و (صواعق) اسم موضع . و (سبعاً تَوَاماً) معناها سبع ليال كاملة مع أيامها

فيكون معنى البيت : ان هذه البقرة المسبوعة بقيت تذهب وتجيء حائرة شاردة اللب

حول الغدران في الموضع المسمى (صواعق) مدة سبعة أيام بلياليها .

غير واحد : شَجَّعَ شجاعة . قال سيبويه : وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمرٍ حتى يضاف إليه ويكونَ من أهله فإنك تقول تفعل نحو تشجع . وقال : شَجَّعْتُ الرجل على الأمر - حملته عليه . سيبويه : هو يُشَجِّعُ أي يرمي بذلك ويقال له صاحب العين : الأَشْجَعُ من الرجال - الذي كانَّ به جنوناً . وأنشد :

بأشجع أخاذٍ على الدهرِ حكمه فمن أيّما تأتي الحوادثُ أفرقُ ؟
أبو عبيد : بَطْلٌ بَيْنُ البطولة ... الجمعُ أبطالٌ ولا يكسّر على غير ذلك . والآنثى بطلة والجمع بطلات ... غيره : وقد بَطُلَ . صاحب العين سمّي بذلك لأن جراحته تَبْطُلُ ^(١) فلا يكثر لها ولا تُبْطَلُ نجاته . ابن جني : هو الذي تبطل ^(٢) عنده دماء الاقران بشجاعته . قال أبو علي : الأَنكاد - الأبطال ...

أبو عبيد : رجل نجِدٌ ونَجِدُوْهُ ونَجِدٌ ونَجِدٌ من شدة البأس . سيبويه نجِدٌ وأنجادٌ ... أبو عبيد : نَجِدٌ نَجَادَةٌ والاسم النَجْدَةُ . ابن السكيت : النجد - السريع الاجابة إلى الداعي بخير أو شرٍ ، والجمع أنجاد ، وقد أنجده . والكمي - الشديد كأنه يجمع عدوه . يقال كمى شهادته يكميها قمعها فلم يظهرها . وهو أيضاً الجريء المُقَدِّم ، كان عليه سلاح أو لم يكن ، والجمع أكماء ، حكاه أبو زيد ، فأما الكمأة فجمع كامٍ . غيره : الكمي

(١) أي تفسد .

(٢) تذهب ضياعاً وهدراً فلا يثار لها منه .

— اللابس للسلح ، وقد تكمى بسلاحه تغطى بها . ابو عبيد : الباسل الشجاع ، وقد بسسل بسالة . ابن السكيت : تبسل في وجهه كبره منظره ، وإنما قيل للأسد باسل لكراهية وجهه وقبحه . قال أبو علي : قال أبو زيد : الباسل الشجاع ، كأنه بسسل على قرنه أي حرم ، والبسل الحرام والجمع بسلاء وبسئل . صاحب العين : أبسل نفسه للموت واستبسل : وطن . أبو زيد : بؤس الرجل بأساً - شجع . صاحب العين : رجل بئس - شجاع ، وقد بؤس بأسة ، الخ .. »

هذه النصوص تظهرنا على مزايا طريقة ابن سيده في معجمه . فالمؤلف كما نرى يبذل جهده في تحديد مفهوم كل لفظة وتخصيصها بمعناها ، ولعل لفظ المخصص ، وهو العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه ، إنما أمله هذه الرغبة .

ومن مزايا هذا الكتاب حرص المؤلف على ذكر مصادره في كل خطوة يخطوها . نعم ، إنه لا يذكر أسماء الكتب التي يصدر عنها ، بل يجتزئ عادة بذكر المؤلفين . وما ذاك إلا لأن هؤلاء الأئمة الذين يأخذ عنهم ويستقي من آثارهم كانوا في نظره ، هم ومؤلفاتهم ، فوق كل تعريف .

ومما يجلب الانتباه أيضاً ما يظهره المؤلف من ورع علمي في الجمع والنقل ، فكثيراً ما نراه في حال اختلاف من ينقل عنهم - كاختلافهم مثلاً - في تحديد معنى لفظة أو صيغة من صيغها - يذكر الروايات المتضاربة كلها

ويضعها أمام القارئ دون أن يقطع بإحداها . وهذه مزية كبرى لها قيمتها في مثل هذا النوع من التصنيف القائمة على الجمع والتنسيق .
ومن مزايا الكتاب أخيراً كثرة ما فيه من الشواهد المختارة من الشعر القديم خاصة ؛ مما يؤكد معنى اللفاظ في نفس المراجع من جهة ، ويطلعه على طريقة استعمالها من جهة ثانية .

هذه المزايا التي عدناها هي أشبه ما يكون بمزايا معاجم اللفاظ الكبرى التي جعلناها موضوع حديثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب ، مثل القاموس ، واللسان ، والناسخ . ولا شك أن المخصص يشغل بين معاجم المعاني مثل المسكاة التي تشغلها هذه الكتب بين معاجم اللفاظ . بقي علينا أن نقول كلمة في طريقة مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها .

يجب على المراجع والباحث في كتب المعاني التي ذكرناها أن يعتمد مبدئياً على فهرسها ؛ إذ أن لكل كتاب من هذه الكتب فهرساً تعدد فيه أبوابه وفصوله ، حتى إذا عثر الباحث على الموضوع الذي يهمله سهل عليه أن يصل إلى اللفظ أو التعبير المراد . فإذا أراد أحدنا البحث عن اسم جزء من أجزاء الجسم الانساني كان في وسعه أن يرجع إلى كتاب خلق الانسان ، وإذا رغب في العثور على اللفاظ المستعملة في التعبير عن خلق من الأخلق الحميدة أو الذميمة فإنه واجد مبتغاه في أحد فصول كتاب الفرائد . وهكذا دواليك .

ولكن مراجعة هذه الفهارس المطوّلة ليست دائماً بالأمر السهل لأنها تستغرق وقتاً غير قليل ، ولذا حاول ناشرو بعض كتب المعاني ان يضعوها لها فهارس أو مفاتيح أبجدية تهدي الباحث إلى مواطن اللفظ الذي يختاره من أقصر السبل . فإذا أراد أحدنا البحث عن الالفاظ والتعابير المستعملة في الشيب ونعوته بحث في المفتاح الابجدي للكتاب عن الشيب في حرف السين ، فيرده هذا المفتاح إلى الجزء والصفحة المذنين ذكرت فيهما ألفاظ الشيب من الكتاب . وفي حرف الصاد ومادة ضوك نبحث عن موطن الألفاظ التي تتصل بالضحك والابتسام . وفي حرف الباء ومادة بكى نبحث عن الألفاظ التي تتصل بالبكاء والنحيب والدموع ... الخ .

وكتاب **المخصص** هو من معاجم المعاني المزودة بمثل هذا الفهرس الابجدي . وكذلك الأمر في الطبقات البيروتية التي كنا أشرنا إليها من كتب ابن السكيت والهمداني والثعالبي ^(١) .

(١) مما يجدر ذكره أيضاً هنا أن كتاب (المخصص) قد أخرجت منه طبعة متهذبة مختصرة حسنة التبويب ، مخففة من الاسانيد والروايات والشواهد ، بعنوان (الافصاح في فقه اللغة) وذلك بعناية الاستاذين عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٢٩٩ م . وهو كتاب لطيف يمكن الاعتماد عليه ولا سيما أن الطبعة الكاملة ليست في متناول الايدي دائماً ،

الباب الثاني

التأليف في الأدب

مؤيد

الأدب بحر واسع ، والتأليف فيه مختلف النواحي متنوع الألوان ، ولا سيما إذا خرج به عن المعنى الفني الضيق الذي له في أذهاننا وهو التعبير الجميل نثرًا وسعراً ، إلى المعنى الثقافي الواسع الذي كان له في أذهان القدماء ، وهو **الخذ من كل علم بطرف** . فكل ما في مكتبتنا العربية من شعر ورسائل وخطب وتاريخ وفلسفة وتراجم ودراسات اجتماعية ورحلات جغرافية ونقد وقصص — وما أكثر ما فيها من كل ذلك ! — هو ، تبعاً لهذا المعنى الثقافي الواسع للدب ، من صميم الأدب العربي . ومن الطبيعي بعد ذلك أن يضيق هذا الكتاب المحدود في غايته ومرماه عن استعراض حركة التأليف في هذه الميادين الثقافية الأدبية كلها . ولا بد لنا في هذا الباب ، شأننا في الباب السابق ، أن نختار من تيارات التأليف الأدبي ما نعتقد أنه أهم من غيره ، وأن حاجة الطالب والباحث والمراجع تشتد إليه أكثر من سواه .

وفي ضوء هذه الحاجة رأينا الاقتصار في هذا الكتاب على بحث الأنواع الثلاثة التالية من أنواع التأليف الأدبي ، وهي :

أ — مجموعات الشعر العربي القديم .

ب— كتب الثقافة الادبية العامة .

ح— كتب تراجم الأُدباء على اختلاف أصنافهم، من شعراء ولغويين ونحاة وكتاب ومترسلين ومصنفين وسواهم .

وغيّ عن البيان ما لهذه الأنواع الثلاثة من شأنٍ بين المراجع والصادر التي تشتد الحاجة إليها .

وجرياً على عادتنا في هذا الكتاب سنتناول بالحديث كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة ، مبينين تطوره التاريخي وملحّين على أهم الكتب المصنّفة فيه .



الفصل الاول

مجموعات الشعر العربي القديم

رواية الشعر في الجاهلية وصدر الاسلام

دراسة الشعر العربي القديم تهتم الأدباء والنقاد من الناحية الفنية ؛ وتهتم اللغويين لبيان خصائص اللغة العربية وتطورها من عصر إلى آخر ؛ وتهتم علماء الدين الذين يستعينون بمفردات هذا الشعر وشواهدده على توضيح معاني كثير من ألفاظ القرآن والحديث ؛ وهي تهتم أخيراً مختلف المختصين في العلوم الاجتماعية لما في هذا الشعر الذي كان يُنعت بحق بأنه (ديوان العرب) - أي مستقر معارفهم ومستودع علومهم - من دلالات كثيرة على تاريخ العرب السياسي وعلى حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية .

والمعروف أن الشعر العربي في قديم عصوره كان في الغالب الأعم يتناقل شفاهاً ، وأن الشاعر الناشئ كثيراً ما كان يتلمذ على شاعر آخر أُرسخ منه قدماً في الشعر ، فيختص به ، ويصبح راويته الموكل بحفظ شعره وإذاعته . وقد روى المؤرخون أن الخطيئة ، الشاعر الهجاء المخضرم

المعروف، كان راوية الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى وابنه كعب، وأن زهيراً هذا كان في عصره راوية زوج أمه الشاعر الجاهلي التميمي الكبير أوس بن حجر . ويروي المؤرخون أيضاً أن كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، الشاعر العذري الإسلامي المشهور بكثير عنزة، كان راوية لجميل بن عبد الله بن معمر العذري المعروف بجميل بثينة، وأن جميلاً هذا كان راوية لشاعر عذري تقدمه اسمه هذبة بن خشرم^(١) كان هو أيضاً بدوره راوية للحطيئة . وليس في مثل هذا النوع من الرواية التي تختص بشاعر بعينه ما يستغرب، بل هي على العكس طريقة في الرواية معقولة وباعثة على الطمأنينة والثقة، لأنها قائمة على أساس من المحبة والاعجاب . ونحن الآن إذا أحب أحدنا شاعراً أو أوقع بكاتب نراه يدرس آثاره بشغف ويبذل جهده في حفظها والمحافظة عليها . وكذلك كان يفعل الشاعر الناشئ قديماً إذا أغرم بشعر أحد معاصريه .

وإلى جانب هذه الرواية المخصصة، وجد في الجاهلية وصدر الإسلام رواة كثيرون لم يكونوا يقصرون عنايتهم على شاعر واحد، بل يروون جيد الشعر العربي مهما اختلف قائلوه . وقد ذكر المؤرخون عدداً من هؤلاء

(١) هذبة بن خشرم شاعر حجازي من بني عامر بن ثعلبة، قتل قودا في المدينة

نحو سنة ٥٢ هـ، أخباره في (الآغانى) : ج - ٢١، ص - ١٦٩ .

المشاهير كمخرمة بن نوفل ^(١) وعقيل بن أبي طالب ^(٢) وعبد الله
ابن عباس ^(٣).

نشاط الرواية في عصر الترويض :

لبث الشعر العربي خلال الفتوح الكبرى وطوال القرن الهجري
الأول تتناقله الرواة من جيل الى جيل ، وظهر خلال هذا القرن عدد
كبير من الشعراء الاسلاميين زادوا الثروة الشعرية العربية غنى على غنى ،
وأسمعوا الناس في الدين والسياسة والحب نغمات جديدة لم يعرفها أهل
الجاهلية البتة ، أو عرفوها ولكن على صورة أقل وضوحاً وقوة . ثم جاء
القرن الثاني ، وهو عصر توقف الفتوح ، وعصر الاستقرار والانشاء
الحضاري . فانصرفت القوى المبدعة المنظمة الى الجهاد في ميدان جديد
هو ميدان الفكر ؛ وأخذت تستفرغ مجهودها كي تجمع الآثار المفرقة ،

(١) أبو صفوان مخرمة بن نوفل القرشي ؛ صحابي عالم بالانساب راوية للشعر

كف بصره في أيام عثمان وتوفي معمر في زمن معاوية .

(٢) هو شقيق الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، كان عالماً بالانساب قریش

واخبارها راوية للشعر . فارق اخاه ولحق بمعاوية نحو سنة ٦٠ هـ .

(٣) هو ابن عم الرسول (ص) . كان يلقب بجبرالامة أي عالماً . كان قوي الحافظة

واسع الثقافة جدا ، فكان متضلعا في الفقه والتفسير والانساب والشعر وأيام العرب ؛

وكان كثيرا ما يوزع أيامه على هذه الاختصاصات المختلفة ، فجعلها يوماً للفقه ، ويوماً

للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لوقائع العرب . توفي سنة ٦٨ هـ .

وتبحث عن التراث الضائع ، وتنظم وتبوّب وتدوّن في كل فن وعلم ؛ فلم يبلغ القرن الثاني غايته حتى كان التدوين قد بلغ أشده .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن نرى فريقاً من العلماء في هذا القرن ، وفي القرن التالي ، يخصصون تراث العرب الشعري ، ولا سيما الجاهلي منه ، بعنايتهم ؛ فيجمعون ما تفرّق منه ، ويحاولون إنقاذاً ما تبقى منه في الصدور بعد أن أتى ضرام الفتوح على قسم جليل منه ^(١) . فالشعر العربي - علاوة على قيمته الفنية - كان كما قلنا مادة لا غنى عنها لكثير من العلوم .

وقد ظهر خلال القرن الهجري الثاني ، وفي القرن الذي تلاه ، عدد كبير من رواة الشعر . ومعظم هؤلاء الرواة كانوا في الوقت ذاته من رواة اللغة وعلمائها الأعلام ، ولا غرابة في ذلك لأنّ جمع اللغة وجمع الأدب كانا يجريان جنباً إلى جنب على اعتبار أن كلا منهما متمم للآخر .

(١) روى ابن سلام الجُمحي في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين) أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه . ولوجاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير . » وقال ابن سلام أيضاً : « قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه . فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزو بلاد فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا (أي لم يرجعوا) الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره » .

من أشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء^(١)، وهو أستاذ الرواية غير منازع، والمفضل الضبي^(٢) وخلف الأحمر^(٣) وحماد الراوية^(٤) والاصمعي^(٥) وابوزيد الانصاري^(٦) وابن سلام الجمحي^(٧) وأبو سعيد

(١) هو من أئمة اللغة والأدب والرواية الموثوقة، وأحد القراء المشاهير. يصفه ابو عبيدة بأنه كان اعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وكانت غامة اخباره عن أعراب ادركو الجاهلية. ولد ابو عمرو بن العلاء في مكة وعاش في البصرة وتوفي في الكوفة نحو سنة ١٥٤ هـ. وكان استاذ جيل من العلماء والرواة امثال الاصمعي وابي زيد ويونس والرؤاسي والافخش وعيسى بن عمر. يقال انه احرق كل كتبه في اواخر حياته ورعا وتقى وانصرف الى دراسة القرآن وحده.

(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، صاحب (المفضليات)، من أشهر رواة الكوفة وأوثقهم، توفي نحو سنة ١٦٨ هـ. ويرجح الاستاذان احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، محققا الطبعة الاخيرة من المفضليات، انه توفي سنة ١٧٨ هـ.

(٣) هو ابو محرز خلف بن حيان الأحمر البصري. رواية مشهور حمل عليه الشيعي الكثير في روايته. توفي سنة ١٨٠ هـ.

(٤) هو حماد بن ميسرة المبارك الديلمي الكوفي، اشتهر بالرواية كثيراً حتى لقب بالرواية. وقد طعن عليه في روايته كثيراً. انظر القصة التي رواها ياقوت في ترجمة المفضل الضبي، وكيف ابطال الخليفة المهدي رواية حماد لزيادته في اشعار الناس وصحح في الوقت نفسه رواية المفضل، توفي حماد سنة ١٥٥ هـ.

(٥) سبقت ترجمة الاصمعي في ص (١٥) حاشية (٢)

(٦) سبقت ترجمة ابي زيد الانصاري في ص (١٢)، حاشية (١)

(٧) هو محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي، العالم الرواية الناقد الاخباري المعروف، صاحب كتاب (طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين)، توفي سنة ٢٣٢ هـ.

السكّري^(١) وابو عمرو الشيباني^(٢) ومحمد بن حبيب^(٣) وعلي بن عبد الله الطوسي^(٤) وابن السكيت^(٥) وثعلب الكوفي^(٦) وغيرهم .
نعم إنه لمن المؤسف حقاً أن تكون قد خالطت هذه الحركة النزيهة

(١) هو ابو سعيد ، الحسن بن الحسين السكري ، أشهر رواة الشعر وصناع الدواوين في عصره واخصبهم تأليفاً . توفي في البصرة نحو سنة ٢٧٥ هـ . اخباره في (الفهرست) و (معجم الادباء) .

(٢) هو ابو عمرو اسحق بن مرار الشيباني ، أحد أئمة الرواية واللغة في عصره ، كان استاذاً لثعلب الكوفي وابن السكيت وغيرهما . الف عدة رسائل لغوية كما جمع عدداً من دواوين الشعراء ؛ توفي نحو سنة ٢١٣ هـ ؛ اخباره في (الفهرست) و (معجم الادباء) .

(٣) محمد بن حبيب نسابه ولغوي ورواية معروف ، قرأ على ابن الاعرابي وابي عبيدة . كان من موالي بني العباس ، و (حبيب) اسم أمه ، جميع دواوين عدد من الشعراء ذكرهم (الفهرست) و (معجم الادباء) ، توفي نحو سنة ٢٤٥ هـ .

(٤) ابو الحسن علي بن عبد الله الطوسي . أحد أئمة الكوفة في الرواية واللغة والنحو ، يلقبه صاحب (الفهرست) براوية القبائل واشعار الفحول . صنع عدداً من الدواوين ، توفي حوالي منتصف القرن الهجري الثالث .

(٥) سبقت ترجمة ابن السكيت في ص ٤٥ ، حاشية (٤) .

(٦) ثعلب لقب ابي العباس احمد بن يحيى الشيباني امام الكوفة في اللغة والنحو في عصره ، توفي ثعلب في بغداد سنة ٢٩١ هـ . من أشهر تصانيفه في اللغة والادب (الفصيح) و (مجالس ثعلب) وكلاهما مطبوع . يقول ابن النديم في (الفهرست) : « عمل ابو العباس قطعة من اشعار الفحول وغيرهم ، منها الاعشى والنابغتان وطيفل والطرماح وغير ذلك .. »

النشطة بعض النوازع المذهبية والعنصرية والسياسية والقبلية والشخصية، تلك النوازع المريضة التي استطاعت أن تستثمر ما كان يظهره العصر من حرص شديد على جمع ما تبقى من الشعر القديم فأدخلت على هذا الشعر العربي ما ليس منه، مما حمل بعض مؤرخي الأدب على الشك في صحة ما روي من الشعر القديم.

ولكن يجب ألا ننسى أن اختلاط الزيف بالصحيح أحياناً لا يكفي لنكران الصحيح ذاته، وأن من عادة الزيف الدخيل أن يكون أقل من الصحيح الأصيل. ويجب ألا ننسى أيضاً أنه إن وجد بين الرواة عدد قليل ممن أعمتهم غاياتهم ومنافعهم عن الأمانة العلمية، فقد وجد إلى جانبهم عدد كبير من الثقات أصحاب الضمائر النقية. وقد تنبّه هؤلاء منذ ذلك الحين على تلاعب المزيفين، فبدلوا وسعهم في التنبيه على زيفهم والحد من خطرهم.

ومهما يكن من الأمر فإنه لا يسع الباحث المنصف إلا أن يقرّ بفضل هؤلاء العلماء والرواة الذين حفظوا لنا ما أمكنهم حفظه من الشعر العربي القديم. ولولا جهودهم لاسدل ستار كفيف دون ماضينا الأدبي البعيد، وللقيت العلوم اللغوية والإسلامية من جرّاء ذلك عنتاً كبيراً.

جمع الرواوين وتصنيف المختارات :

ولم يقتصر الرواة في هذا القرن على الرواية الشفهية شأن الرواة

القدماء ، بل عكف كثيرون منهم على التصنيف الجدي ؛ فصنعوا الدواوين ،
وجمعوا أشعار القبائل ، وصنعوا المجموعات الشعرية وكتب المختارات
المتنوعة ، مما ترك للباحثين بعدهم ذخيرة كبيرة من الوثائق يتعرفون من
خلالها إلى ملامح الشعر العربي في أبعد عصوره ومراحل تطوره .
ولو رجعنا إلى كتب التراجم نسألها عما جمع هؤلاء الرواة من دواوين
القدماء لما وسعنا إلا أن نعجب بالجهود العظيمة التي بذلوها في هذا السبيل .
فهذا أبو عمرو الشيباني يجمع مثلاً دواوين امرئ القيس ، وليد بن ربيعة ،
وتميم بن مقبل ، ودريد بن الصمة ، والأعشى ، والخطيئة ، وسواهم .
وهذا الأصمعي يرتب دواوين النابغتين الذيباني والجمدي ، وامرئ القيس ،
ومهل ، وبشر بن أبي خازم وكثير غيرهم . وهذا محمد بن حبيب يجمع
أشعار ذي الرمة ، والفرزدق ، وجران العود ، والصمة القشيري . وهذا أبو
الحسن الطوسي يجمع دواوين زهير ، وليد ، والأعشى ، وحيد بن ثور ،
والطرمّاح ، والعباس بن مرادس . وهذا أبو سعيد السكّري يجمع دواوين
أكثر من خمسين شاعراً يذكر أسماءهم ابن النديم في الفهرست . وكذلك
باقي الرواة ، فلكل منهم عدد من دواوين القدماء غني بروايتها وجمعها ،
حتى قلّ أن نسمع بشاعر لم يُجمع إذ ذاك ديوانه ، اللهم إلا أن يكون
الشاعر مُقلّاً أو من المغمورين .

وإلى جانب هذه الدواوين الكثيرة التي وصلنا بعضها وفقد الكثير
منها ، صنّف بعض الرواة والعلماء مجموعات شعرية بنوها على الاختيار

والاصطفاء، لا على الاستيعاب والشمول، كما هو الأمر في جمع الدواوين .
هذه المجموعات الشعرية يختلف بعضها عن بعض من حيث الفكرة
الموجهة . فبعض هذه المجموعات يرمي إلى إثبات عددٍ كثير أو قليل من
القصائد المطولة الشهيرة بتمامها، وبعضها الآخر يكتفي ، على العكس ،
بالآيات الجميلة ينتقيها من كل قصيدة . ومن هذه المجموعات ما هو مبوب
على المعاني الشعرية المعروفة ، ومنها ما يجمع المختارات جنباً إلى جنب
مهما اختلفت موضوعاتها . ومن هذه المجموعات أخيراً ما لا يضم بين دفتيه
إلا الشعر الجاهلي فلا يتعداه ، ولو إلى شعر صدر الاسلام ، إلا نادراً ،
ومنها ما ينتقي الشعر الجيد من الجاهلية وصدر الاسلام على حد سواء .
وفائدة هذه المجموعات الشعرية تختلف عن فائدة الدواوين . فالديوان
ضيق الأفق ، اختصاصي الموضوع ، يفيدنا أكثر ما يفيدنا في دراسة شاعر
بذاته . أما هذه المجموعات فهي أوسع أفقاً ، لتنوع موضوعاتها وتعدد
شعرائها . فتصورها للحياة الفنية والاجتماعية اكمل ؛ هذا إلى أنها تدل على
ذوق العصر الذي تصنف فيه ، كما تدل على ذوق مصنفها بوجه خاص .

أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث

المفضليات - لعل أقدم مجموعة شعرية وصلتنا مما صنف في القرن
الهجري الثاني كتاب المفضليات ^(١) لمصنفه المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ،

(١) طبعت (المفضليات) طبعة أخيرة جيدة ظهرت في مصر عام ١٣٦٢ هـ . =

الراوي الكوفي المشهور المتوفى سنة ١٦٨ هـ^(١)، والذي كان من أعلام عصره في العربية والشعر والاخبار.

ذكر ابن النديم في الفهرست ان المفضل « خرج مع ابراهيم بن عبد الله بن حسن فظفر به المنصور ، فعفا عنه والزمه المهدي . وللمهدي عمل الاشعار المختارة المسماة بالمفضليات ، وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة . وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عنه . والصحيحة التي رواها عنه ابن الاعرابي . » يستتبع من هذا الذي ذكره صاحب الفهرست ان **المفضليات** إنما صنعها المفضل لتثقيف تلميذه محمد بن عبد الله المهدي ولي عهد المنصور .

ونحن نعلم أن خروج إبراهيم بن عبد الله على المنصور ومقتله كان سنة ١٤٥ هـ ، وان المهدي إذ ذاك كان في الثامنة عشرة من عمره تقريباً . ولم يتول المهدي الخلافة إلا سنة ١٥٨ هـ بعد وفاة أبيه المنصور . فإذا صح ما قاله ابن النديم - وهو خبر يتواتر في كثير من كتب الأدب مع بعض الاختلاف - كان لنا أن نقول إن جمع **المفضليات** جرى بين سنتي ١٤٥ و ١٥٠ هـ على أبعد تقدير . ومثل هذه النتيجة تجعل من هذا الكتاب أقدم المختارات الشعرية التي وصلتنا .

(١٩٤٣ م) في جزأين بتحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . كما طبعت من قبل في بيروت عام ١٩٢٠ م مع شرح أبي محمد القاسم بن بشار الانباري عليها ، بتحقيق المستشرق (ليال) .

(١) أو سنة ١٧٨ هـ كما ذكرنا في ص ٨١ ، حاشية (٢) .

أما قول ابن النديم: «وللهدي عمل الأشعار المختارة المسماة بالمفضليات»
فدليل على أن المفضل حينما صنّف كتابه سمّاه **الأشعار المختارة**، أو اسماً
آخر قريباً من هذا. ولكن الأدباء فيما بعد أطلقوا على هذه المجموعة
اسم **المفضليات** تمييزاً لها من كتب المختارات الأخرى التي
صنفت بعدها.

للمفضليات منزلة كبرى في الأدب العربي. فهي، إلى كونها أقدم
مجموعة من نوعها في الشعر العربي، تمتاز بميزات كثيرة.
فمن ميزات أنها لا تضم من الأشعار إلا ما كان قديماً. فهي تحتوي
على ١٣٠ قصيدة^(١) لستة وستين شاعراً جلّهم عاشوا وماتوا في الجاهلية،
وليس بينهم إلا عدد قليل من المخضرمين والاسلاميين الأولين.
ومن ميزات أيضاً أن القصائد في هذه المجموعة قد أثبتت بتمامها،
ولم يعتمد المفضل على الاختيار والتفضيل بين أبيات القصيدة الواحدة.
ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعة أن اسم مؤلفها كان أبداً موضع

(١) هذا عدد المفضليات في طبعها الأخيرة بتحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر
وعبد السلام هارون. وقد سبق ان اشرنا الى ما ذكره ابن النديم في الفهرست من
ان المفضليات «مئة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد
وتتأخر بحسب الرواية عنه.» والحق أن هنالك اختلافاً في عدد المفضليات. ويرجع
ان عدد هذه القصائد في اصل الكتاب لم يتجاوز الثمانين، وان الاصمعي وبعض اصحابه
من الرواة هم الذين اضافوا الى الكتاب من اختيارهم قصائد اخرى على نسقها.
[انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الأخيرة من المفضليات.]

الاحترام، فلم يطعن عليه أحد من معاصريه أو ممن جاء بعد في أمانته وصدقه ؛ على كثرة من طعن عليه من رواة الشعر في ذلك العصر ^(١) . بل المعروف المشهور أن المفضل كان من أوائل الذين تنبّهوا ونهّوا على بعض محاولات الرواة الآثمة ^(٢) .

هذه الميزات كافية في توضيح أسباب تلك المنزلة الكبرى التي كانت المفضليات، وما تزال، تتمتع بها لدى العلماء والباحثين . ففي هذه المجموعة صورة للشعر العربي القديم، هي بلا ريب اقرب صورته التي نملكها إلى الصحة والكمال ؛ وما ذلك إلا لأنها جمعت في عهد بعيد لم يكن الزيف قد تطرّق فيه إلى تراثنا الشعري بشكل صريح . كما أن شخصية المفضل ، وما عرف عنه في علمه من استقامة وورع، ضمان على صحة هذه الصورة .

(١) وفي طليعة هؤلاء الرواة المطعون عليهم حماد الراوية الكوفي وخالف الأحمر البصري . اقرأ في هذا الموضوع ما كتبه طه حسين في كتابه (في الادب الجاهلي) بعنوان (الرواة واتّحال الشعر) .

(٢) ذكر ياقوت في ترجمة المفضل ما يلي : « قال ابن الاعرابي : سمعت المفضل الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً . فقيل له فكيف ذلك ؟ أخطىء في روايته او يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط اشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد . واين ذلك ؟ » .

الأصمعيات. — ومن المجموعات الشعرية القديمة التي صنف في القرن الثاني مجموعة تسمى "الأصمعيات" نسبة إلى مصنفها عبد الملك بن قريب الأصمعي، الراوية للغوي الأخباري المعروف، المتوفى نحو سنة ٢١٦ هـ. وقد عرف الأصمعي بسعة روايته للشعر حتى لقبه الرشيد بـ"سلطان الشعر"؛ وحتى قيل عنه، وقال عن نفسه، إنه كان يحفظ كذا وكذا ألفاً من الأراجيز بله القصائد؛ وهي أرقام، على ما فيها من تهويل وإغراق لاشك فيهما، تدل على ما عرف به الأصمعي في عصره من اطلاع واسع على شعر العرب. وقد بلغ الأصمعي في عصره من الشهرة في رواية الأدب والأخبار وحسن تأتية في الحديث ما لم يبلغه المفضل أو أحد سواه من الرواة، حتى أصبح — شأنه في ذلك شأن أبي نواس مثلاً — شخصية أسطورية من تلك الشخصيات التي يعجب بها عصر الرشيد؛ ذلك العصر الذي طبع شخصية (هارون الرشيد) نفسه بطابع أسطوري يلاقي المؤرخون كثيراً من العنت في تجريد هامله.

والأصمعيات اسم أطلق على هذه المجموعة كما أطلق اسم المفضليات على مجموعة المفضل تمييزاً لكل من المجموعتين من الأخرى. ولا شك أنه، على رغم هذا التمييز، قد حدث كثير من التمازج والتداخل بين قصائد المجموعتين^(١). ومجموعة الأصمعي في الطبعة الوحيدة التي بين أيدينا

(١) انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الأخيرة من (المفضليات) بتحقيق أحمد

محمد شاكر وعبد السلام هارون.

منها (١) تحتوي على سبع وسبعين قصيدة بينها عدد من المقطوعات القصيرة .
وشعراء هذه المجموعة هم كشعراء **المفضليات** جلهم من الجاهليين القدماء .

وتعتبر **الاصمعيات** في نظر الباحثين خير متمم لمجموعة **المفضل** من حيث تصوير واقع الشعر العربي القديم ، وان كانت **المفضليات** تفضلها لقدمها ولأن **الاصمعي** قد حمل عليه في روايته ما لم يحمل مثله على **المفضل** (٢) .

جمهرة اشعار العرب . — ومن المجموعات الشعرية القديمة كتاب **جمهرة اشعار العرب** المنسوب لراوية مغمور لا نعرف عنه شيئاً ولا نجد له ترجمة في كتب الادب هو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . وهذا الراوية يروي أكثر أخباره في مقدمة كتابه عن شيخ له اسمه أبو عبد الله **المفضل بن عبد الله المحبري** . وهو على ما يظهر من سلاله الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** ؛ إذ ان اسمه يرد احياناً في مقدمة **الجمهرة** كما يلي :

(١) وهي الطبعة التي ظهرت في مدينة (لينزيغ) عام ١٩٠٢ بتحقيق المستشرق الألماني و . أهلورد ، أو كما يسمى نفسه (وليم بن الورد) . والاصمعيات في هذه الطبعة تؤلف الجزء الاول من (مجموع اشعار العرب) الذي جمعه واشرف على طبعه وتحقيقه المستشرق المشار اليه .

(٢) اقرأ ما كتبه المرحوم احمد أمين في هذا الموضوع في الجزء الثاني من (ضحي الاسلام) ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

المفضل بن عبد الله بن المحبر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفي بعض مواضع المقدمة يعمد المؤلف إلى الاختصار فيقول : (اخبرنا المفضل) ولا يزيد على ذلك شيئاً . ومما يؤسف له ان (المفضل) قد سمي في موضع واحد من مقدمة الكتاب او في موضعين على الاكثر (المفضل بن محمد الضبي) ؛ وهذا بلاريب خطأ من النساخ المتأخرين الذين خلطوا بين المفضل الضبي المشهور صاحب **المفضليات** ، وبين المفضل المحبري سليل عمر بن الخطاب . ولعل هذا الخطأ هو الذي دفع مثلاً العلامة المرحوم احمد امين في كتابه **ضمي الاسلام** الى الظن بأن مؤلف الكتاب ، ابا زيد القرشي ، ربما كان من تلاميذ المفضل الضبي ^(١) . ومثل هذا الظن لا مسوغ له لاننا لو رجعنا الى اسانيد المؤلف في مقدمة كتابه لاستنتجنا منها ان ابا زيد القرشي وأستاذه المفضل المحبري كانا في عصر متأخر عن عصر المفضل الضبي بما لا يقل عن نصف قرن ^(٢) .

(١) : ضحي الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) : فيما يلي بعض هذه الاسانيد الواردة في مقدمة (جهرة أشعار العرب) :

أ — اخبرنا المفضل قال : أخبرني ابي عن جدي عن محمد بن اسحق عن ...

(ومحمد بن اسحق هذا توفي نحو سنة ١٥٠ هـ)

ب — حدثني المفضل عن ابيه عن الاصمعي عن ... (والاصمعي توفي نحو سنة ٢١٦ هـ)

ج — حدثني سنيد بن محمد الازدي عن ابن الاعرابي عن ... (وقد توفي ابن

الاعرابي نحو سنة ٢٣١ هـ) . ومن الواضح الجلي في مثل هذه الاسانيد أن مؤلف

(الجهرة) لا يمكن ان يكون تلميذاً للمفضل الضبي ، وان المفضل الذي ورد اسمه في —

هذه المجموعة الشعرية الشهيرة تحتوي على تسع وأربعين قصيدة مطوّلة من عيون شعر الجاهلية وصدر الإسلام . وقد وزّعها المؤلف في سبع فئات متكافئة ، كل فئة منها تضم سبع قصائد وتحمل اسماً خاصاً . وهذه هي أسماء الفئات السبع : **المعلقات** - **المجمهرات** - **المنقبات** - **المرثيات** - **المراثي** - **المشوبات** - **المحجمات** . ومن الممكن أن نجد لبعض هذه الأسماء تفسيراً مقنعاً ، كالمعلقات والمراثي والمشوبات ^(١) . أما الأسماء الأخرى فمجرد مصطلحات تصلح لتمييز بعض هذه القصائد من بعض . ويظهر أن هذه الألقاب كانت معروفة قبل ظهور هذه المجموعة إلى حين الوجود ، وأن أبا زيد القرشي أخذها عن أساتذته ولم يأت بها من عند نفسه . وهذا ما يفهم من قوله في المقدمة نقلاً عن شيخه المفضل ، بعد أن تحدث عن أصحاب السموط السبعة أو المعلقات السبع : « وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعاً ما هنّ بدو هنّ » ، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصرُوا ؛ وهنّ **المجمهرات** وأما منتقيات العرب فهنّ للمسيّب بن علس والمرقش الخ »

— في الاسنادين (أ) و (ب) غير المفضل الضبي المشهور ، وإن مؤلف **الجمهرة** قد عاش في أواسط القرن الهجري الثالث على أقل تقدير .

(١) المشوبات هنا أي القصائد التي شابهها الشرك والإسلام ، وهي سبع قصائد اختارها مؤلف (**الجمهرة**) لسبعة من الخضرمين هم النابغة الجعدي وكعب بن زهير والقطامي والحطيئة والشيخ وعمرو بن أحرر الباهلي وتميم بن مقبل العامري .

ولما يلفت النظر في هذه المجموعة القيمة ما فيها من تناظر مصطنع في التقسيم . فالمجموعة كما قلنا تضم سبع زمر في كل منها سبع قصائد . ومثل هذا التأنق في التقسيم ، بالإضافة إلى الأسانيد التي أوردتها المصنف في مقدمته ، يحمل على الاعتقاد بأن الكتاب من ثمرات القرن الهجري الثالث الذي شهد في مطلعها نموذجاً آخر من هذا التناظر في طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لابن سلام الجمحي .

والمجموعة بعد خير متمم في نظر العلماء لمجموعتي المفضل والأصمعي اللتين سبقت الإشارة إليهما . فهي مثلها تضم نماذج جيدة وكاملة من شعر الجاهلية وصدر الاسلام ، كما أن فيها عدداً من القصائد الشهيرة التي لا يعثر عليها في الدواوين والمجموعات التي صنفت قبلها .

ديوانه الرهزيين . — ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى مجموعة شعرية أخرى تختلف عن المجموعات السابقة بأنها قاصرة على شعراء قبيلة عربية بعينها . ونعني بها مجموعة أشعار بني هذيل المسماة ديوان الرهزيين .

وقد عني عدد من العلماء والرواة بجمع أشعار كثير من القبائل العربية ، كل منها على حدة في كتاب خاص . من أشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو الشيباني^(١) ؛ فقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا عمرو

(١) سبقت ترجمة أبي عمرو الشيباني في ص (٨٢) ، حاشية (٢) .

هذا جمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة^(١) . ومن مشهوري الرواة الذين اتجهوا هذا الاتجاه في جمعهم للشعر العربي أبو سعيد السكري الذي جمع أشعار خمس وعشرين قبيلة عدد ابن النديم أيضاً أسماءها في كتابه الفهرست^(٢) . ولا ريب في أن جمع الشعر العربي على هذا النحو هو اتجاه في الرواية مفيد جداً ، لأنه يطلعنا على ما لكل قبيلة من خصائص فكرية ولغوية وفنية تتصف بها .

ولم يصلنا مع الأسف من كل هذه المجموعات الكثيرة سوى ديوان الهزليين الذي يضم أشعار ما يقرب من ثلاثين شاعراً من بني هذيل . وقد غني بلمّ شعث هذا الشعر وترتيبه وشرحه أبو سعيد السكري^(٣) . بعد أن سبقه إلى التقاطه وجمعه عدد من كبار الرواة أمثال الأصمعي وابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني وغيرهم .

وهذيل قبيلة عربية مضرية شديدة القرابة من قريش ، وتنحدر مثلها من مدركة بن الياس بن مضر بن نزار . وكانت هذيل تسكن قريباً من مكة والطائف . واشتهرت هذه القبيلة بكثرة شعرائها حتى

(١) انظر (الفهرست) ، ص ١٠١ . وفي ياقوت (ج ٦ ص ٧٩) أن عمرو بن أبي عمرو الشيباني قال : لما جمع أبي أشعار القبائل كانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفاً بخطه وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً .

(٢) انظر (الفهرست) ص ٢٢٦ و (معجم الأدباء) ج ٨ ، ص ٩٨-٩٩

(٣) سبقت ترجمة السكري في ص (٨٢) ، حاشية (١) .

نقل عن الأصمعي أنه قال : « إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعرا أو رامياً فلا خير فيه . » واشتهرت هذيل أيضاً بفصاحتها وسلامة لغتها من الشوائب ، إذ أنها كانت تعيش في وسط الجزيرة العربية بعيدة عن السواحل وجوار الأعاجم ، حتى عدها العلماء إحدى قبائل العرب التي يحتاج بكلامها في اللغة . وأعلّ إعراق هذه القبيلة في الشعر والفصاحة هو الذي دفع الرواة إلى العناية بجمع أشعارها وحفظها وشرحها .

ولو أن أشعار القبائل العربية الأخرى حفظت لنا كما حفظت أشعار هذيل ، لفُتحت أمام الباحثين في تاريخنا الأدبي طرق جديدة في البحث ربما أدت إلى الكشف عن الخصائص الفنية والمغوية لكل قبيلة .

الحجاسات :

وهناك فئة ثانية من المجموعات الشعرية تختلف عن المجموعات التي سبقت الإشارة إليها في هذا الفصل بكونها لا تثبت القصائد المختارة تامةً ، وإنما تعنى أكثر ما تعنى بالمقطوعات والأبيات القليلة تختارها من المطبوعات . وهي تختلف أيضاً عن تلك المجموعات بكونها مبوبة حسب المعاني الشعرية المشهورة . ونسمي هذه الفئة من كتب المختارات الشعرية بالحجاسات لغلبة هذا الاسم عليها ، وإن سُمِّي بعض هذه الكتب باسم آخر .

صحاح أبي نواس . — من أشهر مجموعات هذه الفئة كتاب **الحجاسة**

للشاعر الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفي سنة ٢٣١ هـ . (١)
ذكر الخطيب التبريزي أحدُ شرّاح الحماسة أن أبا تمام قصد الأمير
عبد الله بن طاهر بخراسان فمدحه ، وأنه في طريق عودته توقف في
همدان عند صديقه أبي الوفاء بن سلمة الذي أنزله وأكرمه . وأصبح أبو
تمام ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق ومنع السابلة ، فغممه ذلك .
وأراد مضيفه أن يسرّي عنه فأحضره خزانة كتبه ليطلعها ويشغل بها .
فصنّف أثناء مقامه ذاك عدة كتب أحدها كتاب الحماسة . هذا خبر
لاندرى مبلغه من الصحة ؛ فتأليف عدة كتب أحدها الحماسة يقتضي
من الوقت ما لا يتسع له انجباس صديق عند صديق بسبب انقطاع
الطريق . فإذا صح الخبر لزمننا أن لشكر المصادفات التي دفعت أبا
تمام إلى بيت صديقه في همدان ، وجعلت الثلج يحول بينه وبين المضي
في طريقه ؛ فأتحت الأجيال بكتاب هو بلا ريب أتمن ماتحويه الخزانة
العربية من كتب المختارات القديمة .

(١) طبعت الحماسة لوحدها عدة مرات ، كما طبعت مع شرح التبريزي عليها للمرة
الاولى مع ترجمة للغة اللاتينية ، في اوربا ، بعناية المستشرق الألماني فريتاغ ، منذ منتصف
القرن التاسع عشر . ثم طبع شرح التبريزي في مطبعة بولاق في ٤ اجزاء سنة ١٢٩٦ هـ . وقد
اعيد طبع هذا الشرح اخيراً في مصر بعناية الاستاذ محيي الدين عبد الحميد . وطبعت
الحماسة ايضاً مع شرح المرزوقي عليها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١
بتحقيق الاستاذ المرحوم احمد امين والاستاذ عبد السلام هارون .

ولعل أبانما أجدد أدباء عصره بتصنيف مجموعة مختارة من الشعر القديم . فهو أحد الشعراء العباقرة وأمير شعراء طبقته بلا منازع . وهو في الوقت ذاته من أكثر شعراء العربية أصالة ، وأقومهم ذوقاً ، وأعرفهم بتراث العرب الشعري ، ولذا جاء كتابه تحفة فنية رائعة ، وكنزاً من الشعر باقياً على الدهر . فطارت شهرته قديماً وحديثاً وكثر الثناء عليه ، حتى غلا بعض المعجبين به فقال : « أبو تمام في حماسه أشعر منه في شعره . »

صنف أبو تمام حماسه على عشرة أبواب هي : باب الحماسة ، وباب المراثي ، وباب الرؤب ^(١) ، وباب النسيب ، وباب الرحاء ، وباب الضياف والمديح ^(٢) ، وباب الصفات ^(٣) ، وباب السير والنعاس ^(٤) ، وباب الملح ، وباب

(١) : كلمة (أدب) مستعملة هنا بمعناها الخلقى لا بمعناها الفني أو الثقافي . فكل مختارات هذا الباب من أبواب حماسة أبي تمام موضوعها الثناء على الاخلاق الفاضلة ككتبتان السر والصبر والحلم والمروءة .

(٢) : موضوع هذا الباب الفخر بكرم الضيافة من جهة والمدح من جهة ثانية . والموضوعان مختلفان . ولعل أبا تمام جمعهما في باب واحد لانه كان يرى ان الفخر نوع من انواع المدح يخص به الشاعر نفسه وقومه .

(٣) : باب (الصفات) هو أشد أبواب حماسة أبي تمام اختصاراً إذ لا يضم سوى مقطوعات ثلاث : الاولى في وصف الهاجرة ، والثانية في وصف أرقم ، والثالثة في وصف البرق والمطر .

(٤) : موضوع هذا الباب وصف السير والسرى والليل وما يعتري الراكب من نعاس بعد السير الطويل . وما أجدد هذا الباب أن يكون ملحقاً باباب الصفات لاباباً مستقلاً بنفسه .

مُزْمَنَةُ الْفَسَادِ . والباب الأول -- أي باب الحماسة -- هو أكبر أبواب الكتاب ، وبه سُمِّيَ الكتاب بكامله ، كما سُمِّيَ قبله كتاب العين مثلاً باسم الباب الأول منه . وقد اثبت أبو تمام في هذا الباب ما اختاره من أقوال القدماء في الشجاعة والإقدام والحض على النزال وتحمل المكروه والاستهانة بالموت وإدراك الثأر وما الى ذلك من المعاني الحماسية .

وأبو تمام ، على ما يظهر ، كان أسبق المصنفين الى اتباع هذه الطريقة في تأليف المختارات : طريقة تنسيق المختارات بحسب الفنون الشعرية . فاتبعه المصنفون بعد ذلك وساروا على نهجه . . يدل على ذلك كثرة الحماسات التي ألقت بعده : حماسة صنوه ومعاصره الشاعر البحري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، وحماسة الاخوين الأديبين الشاعرين محمد وسعيد الخالدين من رجال القرن الهجري الرابع ، وحماسة أحمد بن فارس اللغوي المشهور وأحد رجال القرن الرابع أيضاً ، وحماسة أبي السعادات هبة الله بن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وحماسة أبي الحجاج يوسف بن محمد البيهقي الأندلسي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ ، وغيرهم . وتعدد الحماسات على هذا النحو دليل على شهرة حماسة أبي تمام وعلى ما لاقتته لدى الأُدباء من قبول ورعاية حتى اندفعوا يعارضونها ويحذونها من جيل إلى جيل .

ومما يدل أيضاً على شهرة حماسة أبي تمام كثرة من تصدّى لشرحها من جلة العلماء والأُدباء كأبي هلال العسكري ، والحسن بن بشر الآمدي ، وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، وأبي الفتح عثمان بن جني في

القرن الهجري الرابع ؛ وكأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي ، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي ، وأبي الفضل الميسكالي ، والأعلم الششمري ، وأبي الحاسن مسعود بن علي البيهقي في القرن الخامس ، وكأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري في القرن السادس (١) .
وقلّ أن تجد في المكتبة العربية كتاباً من كتب الأدب لقي من عناية الشرّاح والدارسين مالقيه هذا الكتاب .

أما شعراء الحماسة فليس بينهم من المحدثين إلاّ نفر قلائل كمسلم بن الوليد ودعبل وأبي العتاهية . والباقون - وهم الأغلبية العظمى - من قدامى الجاهليين والإسلاميين . كما أن في الحماسة أشعاراً كثيرة جميلة لعدد من الشعراء المنغمورين أو المجهولين . وما أذكر ما تنطوي عليه الحماسة من روائع شعرية لا نجدّها في الدواوين التي بين أيدينا أو في المجموعات الشعرية التي ألفت قبلها . وهذا مما يرفع من قدر الحماسة في نظر العلماء الباحثين عن كنوز الشعر العربي القديم ؛ مع ما لها من منزلة كبرى في نفوس الهواة المشغوفين بالشعر الجميل .

حماسة البحتري . - ومن أشهر الحماسات بعد حماسة الطائي الأولى أبي تمام حماسة الشاعر الطائي الكبير الثاني أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٢) . ويقال إن البحتري ألف هذا الكتاب

(١) كشف الظنون ، ج ١ ص ٦٩١ - ٦٩٢

(٢) طبعت حماسة البحتري طبعة جيدة مذيّلة بالفهارس والتعليقات المفيدة بمطبعة الآباء

اليسوعيين ببيروت سنة ١٩١٠ . ثم أعيد طبعها في مطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٢٩ .

معارضاً به كتاب أبي تمام نزولاً عند رغبة أحد كبار مدوحيه ، الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل على الله .

ويمتاز هذا الكتاب بما امتاز به سابقه من أنه صنع شاعر كبير مرهف الذوق ، يعرف كيف يميز غث الشعر من سمينه . كما يمتاز أيضاً بأنه جمع بين دفتيه مختارات جميلة لا أكثر من ستمئة شاعر جلهم من الجاهلية وصدر الاسلام .

وانما كان مهم من فارق واضح بين الحماسين فانما هو في توزيع أبواب كل منهما . فأبو تمام صنف مختاراته كما رأينا في عشرة أبواب كبيرة . أما البحري فقد صنف مختاراته في مئة وأربعة وسبعين باباً مقتضباً ؛ وذلك لأنه غني بالمعاني الجزئية أكثر مما غني بأغراض الشعر الرئيسية . فهو لا ينظر في تبويب كتابه إلى الحماسة والمديح والوصف والرثاء والهجاء وما إلى ذلك من الفنون الشعرية ، وإنما يراعي الأفكار التفصيلية التي تعود الشعراء التعبير عنها في كل من هذه الأغراض . وقد سمى البحري كتابه حماساً حباً بمعارضة أبي تمام ، ولكننا لا نجد في مجموعته باباً واحداً بهذا الاسم . ومع ذلك فلا أبواب السبعة والعشرون الأولى من كتابه إنما تفصل المعاني الحماسية التي أجملها أبو تمام في باب واحد ^(١) ؛ كما أن في

(١) : هذه أسماء الأبواب العشرة الأولى منها تذكرها هنا على سبيل المثال :

الباب الاول - فيما قيل في حمل النفس على المكروه . الباب الثاني - فيما قيل في الفتك . الباب الثالث - فيما قيل في الاصحار (أي البروز) للأعداء والمكاشفة لهم -

هذا الكتاب عشرين باباً كل منها يتضمن معنى من معاني الصداقة ^(١) ،
وسبعة أبواب كل منها ينطوي على معنى من معاني الشيب ^(٢)
وهكذا دواليك .

— وترك الست منهم . **الباب الرابع** — فيما قيل في مجاملة الأعداء وترك كشفهم عما في
قلوبهم . **الباب الخامس** . — فيما قيل في الأطراق حتى تمكن الفرصة . **الباب السادس**
— فيما قيل في بقاء الأحنة ونمو الحقد وإن طال عليهما الزمان . **الباب السابع** . — فيما
قيل في الأنفة والامتناع من الضيم والحسف . **الباب الثامن** . — فيما قيل في ركوب
الموت خشية العار . **الباب التاسع** . — فيما قيل في الاستسلام على الذل بعد الامتناع
الباب العاشر . — فيما قيل في التحريض على القتل بالنار وترك قبول الدية ... الخ .

(١) وهي الأبواب ٢٨ — ٤٨ ؛ وهذه أسماء بعض الأبواب منها على سبيل المثال:
الباب الثامن والعشرون — فيما قيل في مؤاخاة الكرام وحدها . **الباب**
التاسع والعشرون — فيما قيل في ترك مؤاخاة اللئام وذمها . **الباب الثلاثون** —
فيما قيل في ابتلاء الرجال قبل مؤاخاتهم . **الباب الحادي والثلاثون** — فيما قيل فيمن
تهم مودته ولا يوثق باخائه . **الباب الثاني والثلاثون** — فيما قيل في إخلاص الود
لمن وددت وترك الرضى لهم بما لا ترضى به لنفسك ... الخ .

(٢) : وهي الأبواب ١١٦ — ١٢٢ ؛ وهذه اسمائها : **الباب السادس عشر**
والمائة — فيما قيل في الشباب والشيب . **الباب السابع عشر والمائة** — فيما قيل في
الاعتذار من الشيب . **الباب الثامن عشر والمائة** — فيما قيل في مدح الشيب . **الباب**
التاسع عشر والمائة — فيما قيل في قبح الصباغة بذى الشيب . **الباب العشرون**
والمائة — فيما قيل في مدح الشباب وذم الشيب . **الباب الحادي والعشرون والمائة**
— فيما قيل في مدح الشيب وذم الشباب . **الباب الثاني والعشرون والمائة** — فيما قيل
في الكبر والمهرم .

و خلاصة القول انه اذا جاز لنا أن نقول إن **صهامة أبي تمام** هي كتاب في فنونه الشعر ، كانت **صهامة البحتري** كتاباً في معاني الشعر . وقد توزعت هاتان الطريقتان جهود مؤلفي المختارات الشعرية فيما بعد ، فمنهم من جرى على نهج أبي تمام ، ومنهم من فضل طريقة البحتري . ولكل من الطريقتين مزية ليست للآخرى . فطريقة البحتري أدق تبويباً وأشد إيسافاً للباحث عما قيل في معنى من المعاني الشعرية الصغرى . ولكن عناية المؤلف بالتفاصيل حملته على تمزيق أوصال القصائد والاكتفاء بالمقطوعات القصيرة والأيات المفردة يخالها من هنا وهناك . أما **صهامة أبي تمام** فقطعاتها أقرب الى التمام وتصوير واقع شعرنا القديم ، لأنهم المؤلف في الموضوع العام لافي المعنى الجزئي . ولكن الباحث عن الافكار الشعرية التفصيلية ، المتشوق لمعرفة ما قيل في كل منها على حدة ، لا يستطيع أن يقع غلته في هذا الكتاب بمثل السهولة التي يبلغ بها بغيته في مجموعة البحتري .

صهامة ابن الشجري ومختاراته . -

ومن أشهر الحماسات بعد كتابي أبي تمام والبحتري **صهامة ابن الشجري** أحد مشهورى أدباء بغداد في القرن الهجري الخامس ^(١) . وهذا الكتاب

(١) ابن الشجري هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسيني . ينسب الى بيت الشجري من قبل امه . والشجري نسبة الى (شجرة) وهي —

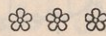
يشبه أن يكون وسطاً بين تينك الحماستين ؛ فهو مؤلف من ستة عشر باباً أساسياً بينها عدد من أبواب حماسة أبي تمام ذاتها ، مثل أبواب الحماسة والمرائي والرهباء والمديح والادب والفنوب والملاح . ولكن أحد أبواب هذا الكتاب ، وهو باب صفات النساء والتشبيهات ، قد قسم الى عدد من الفصول ينطوي كل منها على معنى جزئي من أبواب المعنى الأصلي .

والكتاب بعد ذلك شبيه بحماسة البحري وأبي تمام من حيث كثرة عدد شعرائه وكونهم ينتمون إلى مختلف العصور الأدبية . غير أن نصيب هذا الكتاب من الشعر المحدث يفوق نصيب سابقيه . وليس أدل على ذلك من أن المؤلف ، مع استشهاده بكثير من الشعر المحدث في مختلف أبواب الكتاب ، يخص المحدثين باب مستقل من أبواب كتابه عنوانه **مقطعات من غزل شعر جماعة من المحدثين** .

ولابن الشجري مجموعة أخرى من المختارات الشعرية تعرف بمختارات **ابن الشجري أو ديوان مختارات شعر العرب** . والمؤلف في هذا الكتاب

— قرية من أعمال المدينة المنورة . وكان ابن الشجري نقيب الطالبين في الكرخ . توفي سنة ٥٤٢ هـ وقد أناف على التسعين . طبعت (حماسة) عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) بحيدر آباد الدكن في الهند بعناية المستشرق الألماني (كرنكو) . وطبعت (مختاراته) في مصر عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) بعناية محمود حسن زنائي . ولابن الشجري كتاب في الادب مشهور اسمه (الامالي) طبع في حيدر آباد الدكن في الهند سنة ١٣٤٩ هـ في جزأين .

يُعنى بالشعر القديم وحده دون المحدث ، وبالقصائد التامة دون المقطّعات
ولذا جاء كتابه أشبه بالفضليات والاصمعيات منه بالحماسة التي ذكرناها
وتتضمّ المختارات ما يقرب من خمسين قصيدة لأربعة عشر شاعراً
كلهم من الجاهليين إلا مخضرمًا واحداً هو الخطيئة . ولم تُصنّف هذه
القصائد بحسب موضوعاتها أو معانيها كما هو الامر في حماسته والحماسات
الأخرى ، وإنما رويت دون ترتيب على اعتبار أنها مجموعة من القصائد
العربية القديمة الجميلة ليس غير ، كما هو الأمر في الفضليات والاصمعيات
ومن الممكن جداً أن يكون ابن الشجري قد أراد بهذه المختارات
معارضة المفضل والاصمعي ، بينما أراد بالحماسة مجازاة أبي تمام والبحري .



هذه أشهر مجموعات شعرنا العربي القديم ، عرضنا لذكرها في
هذا الفصل المختضب فبيننا أنواعها ، وميزات كل نوع منها ، وأشهر
مجموعات هذا النوع مرتبة ترتيباً زمنياً . وقد حرصنا كل الحرص على
بيان الفروق الأساسية بين مجموعة وأخرى ، وبين نوع ونوع ، كي تتيسر
الافادة من هذه المجموعات كل بحسب اتجاهها ومضمونها ؛ لأن هذه
المجموعات كما اشرنا إلى ذلك في بدء هذا الفصل هي — بعد الدواوين
الشعرية — أهم مصادرنا في دراسة الشعر العربي في عصوره الغابرة .

الفصل الثاني

كتب الثقافة الأدبية العامة

يعقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة فصلاً في علوم اللسان العربي، فيتكلم بالتتالي على علوم النحو واللغة والبيان، ثم ينهي فصله بالبحث في علم الأدب فيقول: ^(١)

« هذا العلم لا موضوع له يُنظر إليه في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ؛ وهي الإجادة في فني المنظر والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعرٍ عالي الطبقة ، وسجعٍ متساوٍ في الإِجادة ، ومسائل في اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ؛ مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والأخبار العامة . والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر

(١) انظر (المقدمة) ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه ؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه ؛ فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه . ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : **الأدب** هو حفظ أسرار العرب وأخبارها والخذ من كل علم بطرف ، يريدون : من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ؛ وهي القرآن والحديث ؛ إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ؛ إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ؛ فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهم . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين وهي : **أدب الكتاب** (١)

(١) كتاب (ادب الكتاب) او (أدب الكاتب) لعبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، كتاب في اللغة لافي الادب . فهو بأبوابه الاولى يشبه معاجم المعاني التي تحدثها عنها في الباب الاول من هذا الكتاب ، وبأبوابه الاخرى كتاب يبحث في بعض المسائل الاملائية والصرفية الهامة . فوصف ابن خلدون لكتاب الادب لا ينطبق على هذا الكتاب . ولعل ابن خلدون انما ذكر هذا الكتاب بين دواوين الادب الاربعة لان هذه الكتب الاربعة في نظره يتم بعضها بعضاً ؛ فاذا درسها طالب الأدب خرج منها جميعها بثقافة أدبية كاملة . وقد طبع كتاب (أدب الكاتب) عدة طبعات أشهرها الطبعة الاوربية بمدينة (لندن) الهولندية سنة ١٩٠١ م . باشراف المستشرق ماكس غرونرت .

لابن قتيبة ، وكتاب الطامل للمبرد^(١) ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ^(٢) ،
وكتاب النواوير لأبي علي القالي البغدادي^(٣) . وما سوى هذه الأربعة
فتبع لها وفروع عنها .

هذا النص الذي كتبه ابن خلدون في القرن الهجري الثامن^(٤) ثمين
جداً لأنه يوضح لنا مفهوم الأدب والأديب وكتب الأدب عند العرب
حتى عصره على الأقل^(٥) . فالأدب ، بحسب هذا المفهوم ، ثقافة عامة
واسعة ترمي قبل كل شيء إلى تكوين ملكة البيان لدى صاحبها وجعله
قادراً على إجادة التعبير عن أفكاره نثراً أو شعراً . والأديب ، بحسب
هذا المفهوم أيضاً ، إنما هو الرجل المثقف الآخذ من كل علم بطرف ،
والقادر على التعبير عن أفكاره بالكلام الجيد المنظوم أو المنشور . وأخيراً
فإن ابن خلدون إنما يصدر في كلامه هذا عن كتب الأدب ذاتها ؛ إذ
أن جل الكتب العربية التي جرت العادة قبله وفي أيامه بتسميتها بكتب
الأدب أو بدواوين الأدب تصدق بمضمونها ما قاله في تعريف الأدب .
ولعلّ أوضح ما يميّز كتب الأدب من سواها صفتان :

أما الصفة الأولى فهي فقدان الاختصاص . فكتاب الأدب من

(١) ، (٢) ، (٣) : سيأتي الكلام مفصلاً على هذه الكتب الثلاثة في هذا الفصل .

(٤) انتهى ابن خلدون تأليف مقدمته سنة ٧٧٩ هـ .

(٥) نقول (على الأقل) لأن هذا المفهوم سيستمر في الحقيقة حتى فجر النهضة

العربية الحديثة .

حيث الاساس لا يقتصر على فن واحد بل يطرق شتى الفنون ويتلون بمختلف الالوان . وهو ، إلى هذا ، لا يتناول حلاً من هذه الفنون أو الالوان بمعالجة منطقية متعمقة تتناوله من كل أطرافه بالتقضي والاستقراء ، بل تكون معالجته إياها أقرب إلى السطحية والاصطفاء .

وأما **الصفة الثامنة** : فهي الاستطراد المستمر ، وإن شئت فقل القوضى . فترى المؤلف ينتقل في كتابه من قصة إلى حديث ، ومن مقطوعة شعرية إلى حكمة أو خطبة ، ومن نبذة تاريخية إلى بحث في الحيوان أو النبات أو النجوم ، ومن وصف معركة إلى مسألة كلامية أو فلسفية ، ومن نادرة لغوية إلى فسكاها شعبية ، ومن مطالعة اجتماعية إلى تفسير آية كريمة أو حديث شريف ، مسوقاً في كل هذا بما يسمى بتداعي الأفكار وقد يعود المؤلف بعد هذا المطاف إلى موضوعه الذي بدأ به أو لا يعود فإذا عاد إليه فما أسرع ما ينصرف عنه من جديد وهكذا دواليك . ولكن هذه القوضى في كتب الادب مُعمّدة ومقصودة لذاتها . وأكثر مؤلفي كتب الأدب يصرون في مصنفاتهم أنهم قصدوا قصداً إلى تنوع الانعام لنفي السأم عن السامع والقارئ . ذلك أن هؤلاء المصنفين لم يكونوا يرمون من تأليف كتبهم هذه إلى إكساب القارئ ثقافة عميقة في موضوع بذاته بل إلى جملة يأخذ منه كل علم بطرف كما قال ابن خلدون ، أي إلى تشقيقه ثقافة أدبية وفكرية عامة .

ومما تجب الإشارة إليه هنا أن هذه القوضى تختلف نسبتها من كتاب

إلى آخر ، وأنها أشد مانكون ظهوراً في كتب الادب الاولى التي ظهرت خلال النصف الاول من القرن الهجري الثالث . ثم أخذ مؤلفو كتب الادب يخففون من غلواء هذا الاضطراب ويدخلون على مصنفاتهم شيئاً من التنظيم والتبويب . ولكن تنوع الموضوعات والاستطراد يبقيان ، على رغم هذه المحاولات ، الصفتين الرئيسيتين لكتب الادب .

ومن الانصاف بعد هذا أن نعتزف بأن هؤلاء المؤلفين قد وفقوا إلى إدراك مبتغاهم بتنويع موضوعات كتبهم وسلوكهم فيها سبيل الاستطراد غالباً . فالتصفح لهذه الكتب يجد فيها متعة لا تحدد ، لأنه لا يدري وهو يقرأ في احدى الصفحات ماذا تدخره له الصفحة التالية من مفاجآت . كما أن هذا التنوع في كتب الادب جعلها صالحة لكل زمن . فالإنسان المثقف في كل عصر محتاج في بعض أوقاته إلى مثل هذه المؤلفات الخفيفة الظل ، المحببة إلى النفس ، التي لا تجهد قارئها ولا تشق عليه ، بل تسليه بمفاجآتها الفكرية وطرائفها الفنية . وأخيراً فإن دواوين الأدب هذه ، بفضل اتساع أفقها وتعدد مراکز الاهتمام فيها ، أصبحت من أهم مصادر الباحثين في دراساتهم الأدبية . فهي مصادر غنية جداً للدراسات المتصلة بالأدب وتاريخه من حيث هو فن من الفنون الجميلة . ولكنها في الوقت ذاته مصادر جدّ ثمينة لكثير من البحوث اللغوية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية .

أشهر كتب الأدب في القرون الهجرية الثالث :

ربما كانت المكتبة العربية مدينة للجاحظ قبل سواه بابتداع هذا اللون من المصنفات الأدبية الغنية الجامعة . فكتبه أقدم ما وصلنا في هذا الباب ، وأكثر كتبه انطباقاً على مفهوم كتب الأدب كما اتينا على ذكره اثنان : **الحيوان** و **البيان والتبيين** . وقد فهما الجاحظ في أواخر حياته وهو مصاب بالفالج الذي ألح عليه أكثر من عشرين عاماً قبل أن يودي به سنة ٢٥٥ هـ . ألف أولهما قبل سنة ٢٣٣ وأهداه الى وزير المعتصم والواثق ، الكاتب الشاعر الأديب محمد بن عبد الملك الزيَّات^(١) . وألف ثانيهما بعد ذلك التاريخ ، أي بعد مقتل ابن الزيَّات . وأهداه الى خصمه العنيف ، قاضي المعتصم والواثق والمتوكل ، الفقيه المتكلم الشاعر أحمد بن أبي دواد^(٢) . وقد أشار في **البيان والتبيين** إلى كتاب **الحيوان** في غير موضع^(٣) ، مما يدل دلالة قاطعة على أن **الحيوان**

(١) من المعروف أن ابن الزيَّات نكب وعذب الى أن مات سنة ٢٣٣ هـ . وذلك في مفتتح خلافة المتوكل على الله .

(٢) توفي ابن أبي دواد مفلوجاً سنة ٢٤٠ هـ في خلافة المتوكل على الله .

(٣) انظر (البيان والتبيين) ؛ ج ١ ، ص ٦٠ و ص ٢٢٥ . وأوضح هذه الاشارات قوله في الجزء الثالث منه (ص ٣٠٢) : « كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادر الاشعار ... فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ان شاء الله . »

أسبق ظهوراً من صنوه البياض والقميص. ولا شك في أن تأليف الجاحظ مثل هذين الكتابين العظيمين ، بعد أن اصطلحت عليه العلل ، دليل على قوة نفسه وجبروت فكره ؛ ولا سيما أنه ملأ كتابيه هذين عنوبةً وابتساماً ومرحاً ؛ وكان تصنيفه لهما ولا مثالهما كان ينسبه آلامه الجسمية ويجعله يتسلى بنشاط فكره وتوقّد قريحته عن جسده البتر وطرفيه الباردين .

والجاحظ بعد أديب العربية الأكبر في العصر العباسي الأول غير منازع. وهو الرجل الذي تمثل ثقافة عصره - بل ثقافات عصره - ومشاهير تمثل في كتبه الكثيرة المتنوعة. وهو الكاتب الذي استطاع بأسلوبه الدافئ الحيّ الوثاب المتموج أن يجعل آثاره تنبض حياةً على مر العصور . وهو الانسان الاجتماعي الذي ادرك معنى الحياة وقيمتها فاستقطر كل لحظاتها ، واستوحى كل مقوماتها ، وأشبع حواسه وأحاسيسه ؛ ولم يكن يرى في مظهر من مظاهرها ، أو كائن من كائناتها ، ما يستسحق أو ما لا يليق بالكاتب أن يجعله موضوعاً لحديثه . ولذا جاءت كتبه وفيها من غزارة المادة ، وطرافة الدلالة ، وتدفق الحياة ، ما قل أن نجده في كتاب أدبي آخر. ولو أن كتبه فقدت لفقد معها ما لا يعوض من آداب العرب القديمة والحديثة ، ومن الاشارات الثمينة الى مختلف مظاهر الحضارة الاسلامية في القرنين الثاني والثالث خاصة .

والجاحظ ، على علمه الغزير ، أديب قبل كل شيء . فهو يعرف

كيف ينفذ إلى قلب الفارسي بألفاظه الحية ، وتعايره المأنوسة ، ونوادره
الطريفة . فتراه يتنقل بقارئه كالفراشة من زهرة إلى زهرة ، ومن حقل
إلى حقل ؛ فلا يدعه إلا وقد أفاد من صحبته أعظم الفوائد في عقله وبيانه.
وقديماً قالوا في كتب الجاحظ إنها تعلم الانسان أن يكون إنساناً ،
وإنها تعلم العقل أولاً والادب ثانياً ^(١) . ذلك أنها كما قلنا تجمع إلى
المعارف الواسعة الطريقة الادبية في التعبير الجميل والتنقل العفوي المرح .

كتاب الحيوان . —

يقول الجاحظ في هذا الكتاب مخاطباً قارئه ^(٢) :
« ينبغي أن تكون ، إذا مررت بذكر الآية والاعجوبة في الفراشة
والجر جسة ^(٣) ، ألا تحتقر تلك الآية ، وتصغر تلك الاعجوبة ، لصغر

(١) روى صاحب (وفيات الأعيان) في ترجمة الجاحظ القصة التالية : « قال
أبو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبي الفضل (أي : ابن العميد) ،
فقصر رجل بالجاحظ وأزرى عليه . وحلم الأستاذ عنه . فلما خرج قلت له : سكت
أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ؟ فقال لم أجد في
مقابلته أبلغ من تركه على جهله . ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه لصار انساناً
يا أبا القاسم ! كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والادب ثانياً ، ولم استصلح لذلك ! »

(٢) الحيوان : ج ٤ ، ص ٢١٠ .

(٣) الجر جسة : البعوضة الصغيرة .

قدرهما عندك ، ولقلة معرفتهما عند معرفتك ، ولصغر أجسامهما عند جسمك .
 ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم ومن ذلك التدبير كما
 قال الله عز وجل : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً
 لكل شيء) ...

وأنا أعيد نفسي بالله أن أقول إلاّ له ، وأعيدك بالله أن تسمع إلاّ له ،
 وقد قال الله عز وجل : (وإن تدعهم إلى الهدى لا يهتدوا ، وتراهم
 ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . فاحذر من أن تكون منهم ، ومن
 ينظر إلى حكمة الله وهو لا يبصرها . »

ومثل هذا التنبيه ترد في غير موضع من الكتاب . وربما كان هذا
 هو الغرض الأساسي من تأليفه . فالجاحظ رأس من رؤوس المعتزلة .
 وهؤلاء قد أكثروا من الكلام على ما في المخلوقات - ومنها الحيوان -
 من حجة على حكمة الخالق (١) .

والقرآن الذي سميت بعض سورته بأسماء بعض الحيوانات (٢) كثيراً
 ما يضرب الحيوانات أمثالا على حكمة الله وبديع قدرته (٣) .

(١) انظر على سبيل المثال القصيدتين اللتين نظمتهما في الحيوان بشر بن المعتمر
 المعتزلي ؛ وقد اثبتها الجاحظ في (كتاب الحيوان) وشرحها (ج ٦ ، ص ٢٨٤ فبايلي)
 (٢) كسورة النحل ، والنمل ، والبقرة ، والفيل ، والأنعام .

(٣) من ذلك قوله تعالى : (ألم تر إلى الأبل كيف خلقت ؟) وقوله : (إن الله
 لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) .

يُضاف إلى هذا أن الجاحظ ، كسواه من متكلمي عصره ، كان مُطلِعاً على ما نقل إلى العربية من آثار اليونان في العلم والفلسفة ، ومنها كتاب الحيوان لأرسطو . كل هذه الأمور شجعت الجاحظ على تأليف كتاب الحيوان الذي هو الأول من نوعه في اللغة العربية .

ولكن الجاحظ أديب قبل كل شيء؛ فسرعان ما انقلب هذا الموضوع الوقور بين يديه الساحرتين إلى موضوع خفيف الظلّ ، متعدّد الألوان ، متشعب النواحي . وغدا كتابه ، من جرّاء ذلك ، من أغنى كتب الأدب بالأخبار والشعر والخطب والأقاصيص والنوادر، ومن أحفلها بالمعلومات الفلسفية والكلامية والجغرافية والطبية والتاريخية .

وقد تعمّد الجاحظ في كتابه هذا اتباع الطريقة الأدبية ، وأشار إلى قصده هذا في أكثر من موضع منه فقال : (١)

« هذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبيه . وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكّر في فصوله ، وتعتبر آخره بأوله ، ومصادره بموارده . وقد غلّطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدري لم اجتلبت ، ولا أيّ علة تُكلّفت ، وأيّ شيء أربغ فيها ، ولا أيّ جدٍ احتُمِل ذلك الهزل ، ولا أيّ رياضة تجشمت تلك البطالة . ولم تدري أن المزاح جدّ إذا اجتلب

ليكون علةً للجدّ ، وأن البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة .
وقال في موضع آخر : (١)

« على أني عزمت - والله الموفق - أني أوشح هذا الكتاب ، وأفصل
أبوابه ، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء
هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل . فإني رأيت
الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة
إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلاّ في طريق الراحة التي اذا طالت
أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوتار قد سارت في صغار الكتب هذه
السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح (٢) . وما غايتنا من ذلك
كله إلا أن تستفيدوا خيراً . »

ويظهر أن تصنيف كتب الأدب على مثل هذه الطريقة ذات الانعام
المتعددة والالوان المختلفة لم يكن بالأمر السهل . والجاحظ مصدق حين
يقول في وصف العناء الذي لقيه في سبيل وضع كتابه هذا : (٣) .

(١) الحيوان : ج ٣ ، ص ٧ .

(٢) ان كثيراً من الادباء ، ومنهم الاستاذ المرحوم أحمد أمين (ضحى الاسلام :
ج ١ ، ص ٣٩٢) يجعلون الجاحظ مسؤولاً عن فوزى كتب الأدب . ولكن كلام
الجاحظ هنا صريح بأن كثيرين سبقوه الى اتباع هذه الطريقة في كتب صغيرة . فليس
من الجائز أن يحمل وحده كل التبعة في هذه الفوضى .

(٣) الحيوان : ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه .
أول ذلك العلة الشديدة ^(١) ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول
الكتاب ، والرابعة أنني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ،
ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز
والتماس ^(٢) ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً . لاني كنت
لا أفزع فيه إلى تليقظ الاشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآي من
القران والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الامور في الكتب ، وتباعد
ما بين الاشكال . »

وهذا الكلام صريح في أن الجاحظ قد اضطره تصنيف كتابه إلى
الرجوع إلى عدد وافر من الكتب ، في موضوعات مختلفة . ولو أن
كتاباه كان مقصوراً على موضوع بذاته أو مسألة بعينها لتخفف من بعض
هذا العناء .

والحق يقال ، إن القارئ في كتاب الحيوانه يلمس بنفسه وفرة الكتب
التي استعان بها الجاحظ من أجل جمع شتات المادة الغزيرة المتنوعة التي
ضمنه إياها . ولا شك أن في رأس الكتب التي صدر عنها الجاحظ

(١) اشارة الجاحظ صريحة هنا الى أنه ألف كتابه أثناء مرضه كما ذكرنا .

(٢) كل هذه من المسائل الكلامية التي كان يكثر فيها البحث والجدل .
ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الجاحظ كان من متكلمي عصره ، وأنه رئيس فرقة من
فرق المعتزلة تسمى (الجاحظية) .

الدواوين ومختلف المجموعات الشعرية ؛ وذلك نظراً الى الشعر الكثير الذي انتشر بغزارة في شتى فصول الكتاب . وهو شعر قليل في مختلف الموضوعات ، ولا سيما في وصف الحيوانات من إبل وخيل وظباء ووعول ومها وكلاب وطيور جارحة وسواها . ثم يلي الدواوين والمجموعات الشعرية ما صنف من الكتب في القرآن والحديث والكلام والاخبار ، فما نقل إلى العربية من آداب الفرس وفلسفة اليونان ، وفي طليعة كل ذلك كتاب الحيوان لارسطو . فإذا أضفنا الى كل هذه التصنيفات الخبرة الشخصية ، والملاحظة الذكية ، والنهم العقلي الذي لا يكاد يشبع ، عرفنا بصورة مجملة مصادر الجاحظ في كتاب الحيوان .

أما مضمون الكتاب ، فإن الاستاذ عبد السلام هارون ، محققه في طبعته الأخيرة ، يجمل الحديث فيه قائلاً^(١) :

« قد يوهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب . ولكن الحق ان الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لتقافة العصر العباسي المتفتحة الوطراف .

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية ، والمسائل الفلسفية ؛ كما تحدث في سياسة الاقوام والافراد ؛ وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

وتحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان والانسان والشجر ، كما تناول الحديث في الاجناس البشرية وتباينها . و كما عرض لبعض قضايا التاريخ .

وفيه كذلك حديث عن الطب والامراض : امراض الحيوان والانسان ، وبيان لكثير من المفردات الطبية ، نباتيها ، وحيوانيها ومعدنيها .

وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب واحوالهم وعادتهم^(١) ومزاعمهم وعلومهم ، كما أفاض القول في آي الكتاب العربي ، وحديث الرسول العربي ، و كما فصل بعض مسائل الفقه والدين .
والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره ، وناهيك باختيار أبي عثمان ! وإن أردت الأمثال فهو قد جمع منها القدر الكبير ؛ أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما تراح اليه نفسك وتطمئن .

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثراً . وإنها لتطالعك بين الفينة والأخرى متمثلة فيما يروي من نادرة ، أو يحكي من قصة .

(١) عاد: جمع عادة.

وأما المجون فلا عليك أن تمرّ به لتظهر لك ناحية من النواحي التي غلبت على كثير من متأدبي عصر الجاحظ التي لم يكن فيها حرج حينئذ ولا خشية .»

من هذا العرض الوجيز تتضح قيمة الكتاب بوصفه مصدراً جليلاً للدراسات الأدبية والاجتماعية والعلمية على اختلاف مناحيها. ومن حسن الملاحظ أن هذا الكتاب الفخم قد زود في طبعته الأخيرة بفهرس سماه المحقق (فهرس المعارف) . وهو فهرس لطيف يعين الباحث على الوصول إلى طلبته في الكتاب بأهون جهد وأقصر وقت .

كتاب البيان والتبيين . -

كما كانت دراسة الحيوان ، وذكر فصائله ، وبيان طبائعه ، والتنبيه على مافيه من دلائل على حكمة الخالق وعظيم قدرته ، الفكرة الموجهة في كتاب الحيوان ، كذلك كان البيان - أي : ظهور المعاني القائمة في النفس بواسطة إحدى الدلالات أو الوسائل التعبيرية - ، والتبيين - أي : قدرة الإنسان على الإفصاح عن أفكاره وإظهارها بوضوح - ، الفكرة الموجهة في كتاب البيان والتبيين . وهذا الكتاب قد ألفه الجاحظ ، كما ذكرنا آنفاً ، في أواخر حياته ، بعد أن انتهى من تصنيف كتاب الحيوان . وفي هذا الكتاب مباحث كثيرة ، عظيمة القيمة ، دقيقة الدلالة ، تتصل بمفاهيم البيان والفصاحة والبلاغة . فالجاحظ يتناول بمحدثه الألفاظ ؛

فيتكلم على شروط فصاحتها ، ومخارج حروفها ، وعجز بعض الناس عن النطق بها على الوجه الصحيح ، وما يعثر بها من لكنة على ألسنة الأعاجم أو مجاورهم من العرب ، والفرق بين ألفاظ البدو والحضر ، وأسباب اختلاف اللهجات بين الأمصار .. ويخوض كذلك في حديث البيان والبلاغة : فيبحث في الأفكار ووسائل التعبير عنها ، وعلاقة مظهر المتكلم ببيانه ، وأثر البيئة والصناعة فيه ، ووجوب التناسب بين اللفظ والمعنى ، وقيمة تنقيح الكلام ، وسوء مغبة هذا التنقيح إذا تجاوز الحد الوسط ، ومفهوم البلاغة عند الأمم المختلفة ، وبلاغة المعتزلة أئمة الكلام ، وبلاغة الكتاب والنسك والزهاد والقصاص .. ويتناول الشعر والشعراء ، والخطابة والخطباء بأحاديث كثيرة في مواضع مختلفة من الكتاب : فيتحدث في صفات الشعر الجيد ، ومذاهب الشعراء في تنقيحه ، وأثره الاجتماعي ، وصعوبة الجمع بين بلاغة الشعر وبلاغة القلم ، والشعراء وأزيائهم وطبقاتهم واختلافهم في قوة الطبع ودقة الصنعة . ويذكر مقومات الخطابة ، وموضوعاتها الأساسية ، واختلاف مكانتها باختلاف العصور والأمم ، وأثرها في النفوس ، وأزياء الخطباء وعاداتهم في خطبتهم ، والمشهورين منهم في الجاهلية والإسلام وما أشبه ذلك من المباحث التي هي من صميم البلاغة والنقد والأدب .

ولعل نقطة الانطلاق في هذا الكتاب رغبة الجاحظ في الثبات أمام دعاة الشعوبية ، وتوضيح ما للعرب من مزايا في لغتهم وبياناتهم وبديعتهم

وسرعة خاطرهم . ذلك أن المفاضلة بين العرب وسواهم في هذا الباب كانت من المسائل التي غني بها الشعوبيون وخصومهم . وكان في جملة ما يأخذه على العرب خصومهم استعانتهم أثناء الخطابة بالعصي والخاصر^(١) ، واعتمادهم على القسي^٢ ؛ وكأنما كان ذلك في نظرهم دليلاً على عجزهم وقصورهم وحدثة عهدهم بالحضارة . ومثل هذه السفاسف والاعتبارات السخيفة تبين لنا الدرك الذي كان يتهافت نحوه الجدل الشعوبي أحياناً . وقد دافع الجاحظ عن العرب وبيانهم في كتابه هذا دفاعاً جميلاً ؛ فتكلم على خطابتهم ، وكتابتهم ، وشعرهم ، ولهجاتهم ، ونواديرهم ، ومناظراتهم ، ورويتهم ، وبديتهم ؛ وذكر عدداً من شعرائهم وخطباءهم وكتّابهم ، مختاراً لهم من أقوالهم مقداراً ضخماً ؛ وأشاد بما جبل عليه العرب من بلاغة وقوة عارضة في باديهم وحاضرهم . ولعلّ دفاعه عن البيان العربي أشدّ ما يكون وضوحاً في باب مسهب من أبواب كتابه سماه : باب العصا ، أراد أن يردّ فيه على ترّهات الشعوبية حين أخذوا على العرب استعمالهم العصي والقسي في خطابتهم .

ومن الدلائل على أن الردّ على الشعوبية في هذا المعنى كان من الحوافز الأساسية على تأليف هذا الكتاب ، أننا نرى الجاحظ منذ مفتتح الجزء الثاني منه يقول : ^(٢) « أردنا أبقاك الله أن نبتدىء صدر هذا الجزء

(١) الخصرة : قضيب أوعصا يكون مع الخاطب إذا تكلم . والجمع مخاصر .

(٢) البيان والتبيين : ج ٢ ، ص ٥ .

من البيان والتبيين بالرد على الشعوية في طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر ، واعتمدوا على وجه الارض بأطراف القسي والعصي ، وأشاروا عند ذلك بالقضبان والقنا ؛ وفي كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق والمثل السائر . ولكننا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجللة من التابعين ... « ولكن هذا الكلام المختار الذي يجب الجاحظ أن يصدر به الجزء الثاني ، لا يلبث أن يتدقق ، يأخذ بعضه برقاب بعض ، حتى يعم ذاك الجزء بتمامه . فإذا ما بلغ المؤلف الجزء الثالث من كتابه عاد فافتتحه بقوله ^(١) : « هذا ، أبقاك الله تعالى ، الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ... ونبدأ ، على اسم الله تعالى ، بذكر الشعوية ومن يتحلى باسم التسوية ^(٢) ، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم ، بالموزون المقفى والمنثور الذي لم يقف ... »

ويأخذ الجاحظ في تفصيل كلام الشعوية في هذا المعنى ، وأنهم يرون أنه ليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ؛ وأن أمم الفرس والروم والهند ، على إعرافها في المنطق وبعد شهرتها في البيان ، لا يلجأ خطباؤها إلى شيء مما يلجأ إليه خطباء العرب

(١) البيان والتبيين: ج ٣ ، ص ٥ - ٦ .

(٢) يسمى الشعوبيون أحياناً بأهل التسوية لأن ظاهر دعوتهم كانت المطالبة

بالتسوية بين العنصر العربي والعناصر الأخرى .

في خطبهم . « فكيف سقط على جميع الامم من المعروفين بتدقيق المعاني
وتخير الالفاظ وتميز الامور ، أن يشيروا بالقنا والعصي والقضبان والقسي ؟
كلا . ولكنكم كنتم رعاة بين الابل والغنم فحملتم القنا في الحضر ،
بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في
الوبر ، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب . (١) » ويمضي
الجاحظ في تفصيل آراء الشعوية ومزاعمهم على هذا النسق حتى إذا انتهى
من عرضها عمد الى الرد عليها . فبين أولاً أن اليونانيين إنما كانوا
أصحاب فلسفة ومنطق لأصحاب خطابة ؛ وأن الهنود كانوا أصحاب
حكمة وأدب قبل كل شيء ؛ وأنه لم يشتهر بالخطابة حقاً إلا العرب
والفرس ، ثم بين الفرق بين خطابة الفرس وخطابة العرب فقال (٢) :
« ان كل كلام للفرس و كل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ،
وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول
التفكير ودراسة الكتب . وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة
الثالث في علم الثاني ؛ حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . و كل
شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ، ولا

(١) ج ٣ ص ١٤

(٢) ج ٣ ، ص ٢٨

مكابدة ، ولا إجابة فكرة ، ولا استعانة ^(١) ...»

ثم يعنف الجاحظ بالرد على الشعوية حين يقول : ^(٢) « فنفهم غني - فهمك الله - ماأنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم ، وغليان تلك المراحل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة . ولوعرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعلمهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهياتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ، ولم تكلفوه ، لا راحوا أنفسهم ، ولحقت مؤونتهم على من خالطهم . »

ويستمر الجاحظ بعد ذلك في دفاعه عن الخطباء العرب في اخذهم العصا ، مقيماً الدليل من آي القرآن الكريم ، والشعر ، والاخبار على « ان اخذ العصا مأخوذ من اصل كريم ومعدن شريف » ، مستطرداً في كلامه الثر المتدفق من حديث إلى حديث ، ومن باب الى باب حتى نهاية الكتاب .

(١) حبذا لو أن العرب أقل بديهية وارتجالاً ، وأحرص على طول التفكير

والاجتهاد في جميع أمورهم .

(٢) البيان والتبيين : ج ٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

كل هذا يصح أن يكون دليلاً على أن البيان والتبيين إنما هو في مضمونه وغايته كتاب في الدفاع عن البيان العربي في مختلف مظاهره .
 أما طريقة الجاحظ في كتابه هذا فهي كطريقته في كتابه الحيوان من حيث الاستطراد ، والتنقل في الباب نفسه ، أو من باب إلى آخر ، من جد إلى هزل ، ومن خبر إلى شعر ، ومن خطبة إلى موعظة أو قصة أو نادرة ، وعدم الاستمرار طويلاً في موضوع بعينه ^(١) . على أن الطابع الأدبي في البيان والتبيين أوضح منه في الحيوان ؛ كما أن ما يتضمنه من الشعر والخطب والرسائل والمباحث اللغوية والبلاغية أغزر . ومن هذه الناحية كان هذا الكتاب يفوق الحيوان بوصفه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية ؛ وإن كان دونه من حيث دلالاته على الحياة الاجتماعية والعقلية في العصر العباسي الأول .

✧ كتاب السطوح للحميد ^(٢) :

ومن أشهر الكتب الأدبية التي ظهرت في القرن الهجري الثالث

(١) يقول الجاحظ في (البيان والتبيين) يذكر طريقته في تأليفه : « قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم الكلام ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد في نشاطه . » البيان والتبيين : ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) طبع السكامل لوحده أكثر من مرة . كما طبع مع شرح المرصفي عليه المسمى (رغبة الآمل من كتاب السكامل) في ٨ أجزاء ، بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠

كتاب الطامل لأبي العباس محمد بن يزيد الثمالي الملقب بالمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ. والمبرد امام العربية ببغداد كما يقول ياقوت^(١) وزعيم المذهب البصري في اللغة والنحو في عصره. كان واسع الاطلاع على مختلف مناحي الثقافة العربية من لغة، وشعر، ونثر، وأخبار؛ والف عددًا من المصنفات في اللغة والنحو والصرف والعروض والقوافي والنقد والبلاغة والاخبار، أشهرها كتاب الطامل الذي نحن بصددده^(٢).

والطامل كتاب أدب، طبقاً لمفهوم هذا النوع من الكتب كما عرضنا لبيانها في مفتتح هذا الفصل. فهو كتاب ثقافة أدبية عامة، مع ميل شديد الى إيراد النماذج المختارة من الشعر الجميل، والنثر البليغ، والاحاديث المأثورة، والاخبار الطريفة. وهو ككتابي الجاحظ الآتفي الذكر، كثير التنقل من موضوع إلى آخر، قلما يستقر طويلاً على فكرة واحدة. وكثيراً ما نرى المبرد — شأنه في ذلك شأن الجاحظ قبله — يصرح بتعمده هذا التنقل والاستطراد؛ كقوله مثلاً في مطلع أحد ابواب كتابه^(٣): «قال أبو العباس: نذكر في هذا الباب من كل شيء لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف. ونحفظ ما فيه من الجد بشيء من الهزل، ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس...»

(١) معجم الادباء: ج ١٩، ص ١١٢.

(٢) انظر مصنفات المبرد في معجم الادباء: ج ١٩، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) هو الباب ٤٦ الذي يبدأ به الجزء الثاني.

فإذا انتقل إلى الباب الذي يليه بدأه بقوله : (١) « قال أبو العباس : وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرنا ، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب ، والمحدثين بعدهم . » وينتقل من ثم إلى باب ثالث يقول في أوله : (٢) : « باب تجتمع فيه طرائف من حسن الكلام وجيد الشعر وسائر الأمثال ومأثور الأخبار إن شاء الله ... » كل هذا دليل على أن تقسيم الكتاب إلى أبواب إنما هو نوع من التنظيم الشكلي الظاهري ، وأن كل باب من أبواب الكتاب إنما هو عبارة عن مجموعة من المختارات في موضوعات ومعان مختلفة . نعم ، إن بعض الأبواب القليلة في الكتاب تراها معقودة على نوع واحد من الأخبار أو المختارات ؛ مثل الباب السابع والاربعين في بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب ؛ والمحدثين بعدهم ، ومثل الباب التاسع والاربعين من أخبار الخوارج . ولكن هذه الأبواب نفسها ليست في الحقيقة سوى مجموعات من المختارات والأخبار وضعت على غير نسق أو نظام ؛ وليس يجمع بينها سوى الفكرة العامة المسيطرة على الباب . بل كثيراً ما يرى المؤلف خلال هذه الأبواب ذاتها يستطرد إلى أخبار ، أو يورد مختارات لا صلة لها بالفكر العامة التي بنيت بهذه الأبواب عليها . ذلك أن المبرد في كتابه هذا كان أحياناً قبل كل شيء ،

(١) انظر الباب ٤٧ من (الكامل) : ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر الباب ٤٨ من (الكامل) : ج ٢ ، ص ١٠١ .

ولم يكن مؤرخاً فحسب أو ناقداً أو لغوياً . فهو في باب الحوار لا يؤرخ لهذه الجماعة ، ولا يبحث في عقائدها ومبادئها بحث علم وتحقيق ، وإنما الذي يعنيه أن يذكر من أفرادها من كان ذا أثر طريف وانصلت به حكمهم من كلام وأفعال .

ومع هذا فبين كتاب المبرد هذا وكتابي الجاحظ اللذين سبق ذكرهما فروق يمكن إجمالها في الملاحظتين التاليتين :

١ -- كتاب الكامل أضيق أفقاً من كتابي الجاحظ . فكتب الجاحظ بوجه عام أشد اتصالاً بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، وأعمق تغلغلاً في الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وأكثر اهتماماً بمذاهب الحياة الفكرية المتنوعة في القرن الثالث ، ولا سيما المذاهب الفلسفية والعلمية . أما كتاب الكامل فيكاد يكون صورة للثقافة العربية الصرف في عصر المؤلف ، بكل ما يتصل بها من شعر ونثر وأخبار ولغة ونحو وصرف (١) .

٢ -- كتاب الكامل كتاب أدب صبغ بصيغة نحوية واضحة لانكاد نلمح لها أثراً في كتابي الجاحظ . ذلك أن المبرد كان كما رأينا إمام العربية في عصره وزعيم مدرسة البصرة في اللغة والنحو . ولذا لم يكن لكتابه

(١) وهذا هو الرأي الذي اتجه إليه الأستاذ أحمد أمين رحمه الله في كتابه (ضحى

بد من أن تسيطر عليه نزع المؤلف اللغوية واهتمامه بالمباحث النحوية والصرفية . وقد قصد المؤلف إلى كل هذا في كتابه قصداً كما يتضح من قوله في المقدمة ^(١) : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ، ما بين كلام منشور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة . والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الأعراب شرحاً وافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً . » ومعنى هذا أن كتاب الكامل كتاب لغة ونحو وصرف قد بُثَّ بحنكة وبمقايير مرسومة في تضاعيف مجموعة من النماذج الأدبية الجميلة . وبعبارة ثانية هو كتاب تعليمي يرمي إلى تزويد قارئه بثقافة أدبية عربية متينة ، وإخلاعه على أسرار اللغة العربية وقواعدها الدقيقة من خلال النصوص المختارة . وهي بلا ريب طريقة مثلى في دراسة الأدب واللغة معاً .

والكتاب ، بعد ، مصدر جليل من مصادر اللغة والأدب والتاريخ ، لغزارة ما انطوى عليه من بحوث ومختارات وأخبار في هذه الموضوعات .

(١) انظر (الكامل) : ج ١ ، ص ٢ .

عيون الاخبار لابن قتيبة (١):

وأخيراً لابدّ لنا ، ونحن نتكلم على كتب الأدب الشهيرة التي ظهرت خلال القرن الثالث ، من أن نذكر كتاب **عيون الاخبار** لمؤلفه عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . وابن قتيبة من أعلام القرن الثالث ، ومن الممثلين البارزين لثقافته الخصبه الخيرة . وكان كالجاحظ يجمع بين الثقافة العربية الصرف وثقافات الحضارة الإسلامية الأخرى ، كما كان مثله كثير التصنيف في أنواع العلوم ، فألف في القرآن والحديث والكلام والفقه والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب (٢) . على أن عناية ابن قتيبة بالعلوم الإسلامية واللغوية كانت أعظم من عناية الجاحظ بها ؛ بينما كان الجاحظ أميل منه إلى الدراسات الأدبية والاجتماعية ، فخصّها بقسطٍ وافرٍ من اهتمامه .

يتحدث ابن قتيبة في خطبة **عيون الاخبار** مبيناً غرضه من تأليف الكتاب فيقول : « إني كنت تكلفت لمغفل التأديب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ... وشرطت عليه مع تعلم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كاتب ، ويستعين

(١) طبع (عيون الاخبار) في ٤ أجزاء ، في مطبعة دار الكتب المصرية

بالقاهرة بين عامي ١٩٢٥ - ١٩٣٠ .

(٢) انظر ثبوتاً بأسماء مؤلفات ابن قتيبة في الجزء الرابع من (عيون الاخبار) ، ص

بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور . ولما تقلدت له القيام ببعض آله ، دعيتي الهمة الى كفايته . وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه ، وعولت له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون ... فأكملت له ما ابتدأت » فكلام ابن قتيبة واضح في أنه أراد من تصنيفه هذا الكتاب تزويد الكاتب الناشئ ، أو القارئ بوجه عام ، بما يحتاج إليه في حديثه وكتابته من ثقافة أدبية واسعة ؛ وذلك بعد أن بدأ فألف له **أرب الطالب** الذي طواه على مسائل لغوية وإملائية يحتاج إليها لتقويم لسانه ويده . ولهذا خلا كتاب **عيون الأخبار** من المباحث اللغوية الصرف ، واقتصر على إيراد الأخبار والمختارات الجميلة في كثير من المعاني الهامة .

والكتاب غزير المادة ، متنوع الألوان ، شأن غيره من الكتب الأدبية . وإذا امتاز هذا الكتاب من الكتب التي ذكرناها قبله بشيء ، فبكونه يمثل خطوة في التنظيم نفتقدها في تلك الكتب . ذلك أن ابن قتيبة ما فتى منذ حدائته يتلقط مادة كتابه من جلسائه وإخوانه ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، ومن بلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ^(١) ،

(١) يقول ابن قتيبة في مقدمة (عيون الاخبار) : « واعلم أنا لم نزل نلتقط هذه الاحاديث في الحدائث وفي الاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ، وعن جلسائنا واخواننا ، ومن كتب الاعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا ، غير مستكفين أن نأخذ عن الحديث سنأ لحدائته ، ولا عن الصغير =

حتى تجمع لديه منها قدر عظيم . ثم شرع في تصنيف هذه المواد أبواباً ،
فجمع في كل منها الاخبار المتماثلة ، والاشعار المتشاكله ، فصارت في اربعة
عشر كتاباً ، فأفرد منها اربعة أخرج كلاً منها في كتاب مستقل ، وهي :
كتاب الشعر والشعراء . وكتاب المعارف ، وكتاب الشراب ، وكتاب تأويل
الرؤيا . ثم جمع عشرة الكتب الباقية في هذا الكتاب الضخم الذي سماه
عيون الاخبار . ^(١) وهذه الأبواب العشرة التي يتألف منها الكتاب هي
كتب : السلطان ، والحرب ، والسودر ، والطبائع والاضطراق ، والعلم ،
والزهر ، والافزون ، والموائج ، والطعام ، والفساء . فالكتاب من هذه
الوجهة يمتاز بشيء من التنظيم والتبويب .

== قدراً لحساسته ، ولأعن الامة الوكعاء لجهلها ، فضلاً عن غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن ،
من حيث أخذه نفعه » .

(١) يقول ابن قتيبة في المقدمة : « وهذه عيون الاخبار . نظمتها لمغفل التأذب
تبصرة ، ولاهل العلم تذكرة ... وصنفتها ابواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخر بمثله ،
والكلمة بأختها ، ليسهل على المتكلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ...
واني حين قسمت هذه الاخبار والاشعار وصنفتها ، وجدت على اختلاف فنونها وكثرة
عدد ابوابها تتجمع في عشرة كتب ، بعد الذي رأيت افراده عنها ، وهو أربعة كتب
متميزة ، كل كتاب منها مفرد على حدته : كتاب الشراب ، وكتاب المعارف ، وكتاب
الشعر ، وكتاب تأويل الرؤيا ... » وسياأتي الحديث عن كتاب (الشعر والشعراء)
في الفصل القادم . أما كتاب (الشراب) او كتاب (الاشربة) فقد نشره المجمع
العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٦ هـ بتحقيق المرحوم الاستاذ محمد كرد علي . وأما
كتاب (تأويل الرؤيا) فيظهر أنه مفقود .

وقلما نجد لابن قتيبة في أحد هذه الأبواب فكرة خاصة أو بحثاً
شخصياً؛ إذ ليس الباب سوى مجموعة من الأخبار المنقولة المتصلة بالمعنى الذي
بُني عليه، مع جملة من النوادر والأشعار المشاكلة لتلك الأخبار. كما
أنه قلما نلمح فيه نسقاً مطرداً أو بحثاً متمسكاً؛ وإنما هو التنقل والوثب
والاستطراد كما هي الحال في البيان والتمثيل أو الظلم. ولعل ابن قتيبة
كان يعتمد هذا الأسلوب، جرياً على عادة مؤلفي كتب الأدب قبله،
ليستمتع بكتابه جميع الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم. فهو يقول
في مقدمة كتابه « ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وفقاً على طالب
الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على
ملوكهم دون سوقيتهم، فوفيت كل فريق منهم قسمه، ووفرت عليه سهمه،
وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا... ولم أخله مع ذلك من
نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة، وأخرى مضحكة؛ لئلا يخرج
عن الكتاب مذهب سلكه السالكون، وعروض أخذه فيه القائلون،
ولأرواح بذلك القاريء من كد الجد وإتاعاب الحق. فإن الأذن
مُحاجة، وللنفس حمضة. والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً، ولا حايينه
وأوقاته وأسباب أوجبه مشاكلاً، ليس من القبيح ولا من المنكر،
ولا من الكبار، ولا من الصغار إن شاء الله... وإنما مثل هذا الكتاب
مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين. »
ومثل هذا الكلام يذكرنا بكلام الجاحظ في الحيوان والبيان والتمثيل.

وكتاب ابن قتيبة، كالكتب التي سبق ذكرها ، من أجل مصادرنا الأدبية ، وأغزرها بالمعارف ، وأحفلها بالأخبار . ويمتاز بحسن التبويب الذي يجعله قريب المتناول ، ويعين القارئ على الوصول إلى مبتغاه فيه بكثير من اليسر .

وقد كان لمؤلفات ابن قتيبة عامة ، وعبوره الأخبار خاصة ، شهرة كبيرة في القرن الثالث والعصور التي تلتها . وانتقلت هذه الشهرة من المشرق إلى المغرب ، حتى كان أهل الأندلس لا يثقون بعلم من خلت مكتبته من مؤلفات ابن قتيبة . وهذه الشهرة هي التي حملت ابن عبد ربه الأديب الأندلسي المعروف أن ينسج على منواله ، فيؤلف كتابه العقد الفريد الذي سنتحدث عنه في معرض كلامنا على أشهر الكتب الأدبية المؤلفة في القرن الهجري الرابع .

أشهر كتب الأدب في القرون الهجرية الرابع :

استمرت حركة تأليف دواوين الأدب في القرن الرابع ، واتسع نطاقها ، فاهتم بها أدباء المغرب والأندلس الذين لاقت لديهم كتب المشاركة رواجاً كبيراً . ولعل أشهر كتب الأدب في هذا القرن اثنان قدر لهما كليهما أن يبصرا النور في قرطبة ، حاضرة الأندلس ، وقرن بغداد في ذلك الطرف الآخر من العالم العربي الإسلامي ، وهما : كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الروالي لأبي علي القالي . وسنخصصهما بالحديث فيما يلي :

العقد الفريد (١) :

كان الاندلسيون ينظرون الى المشرق نظرة ملؤها الحنين والاعجاب؛ فيسمون مدنهاهم وقصورهم بأسماء مدن المشرق ولا سيما مدن الشام (٢) ، ويتلقطون آداب المشاركة وعلومهم ، فيحذون حذوها في شعرهم ونثرهم وتصانيفهم . والعقد الفريد مثال واضح من أمثلة إعجاب الاندلس بالمشرق وسيره على نهجه .

الف ابن عبد ربه (٣) كتابه في الاندلس بعد ظهور كتاب عيون الرضا في المشرق بنصف قرن او اكثر (٤) . والقارىء للكتابين لا يستطيع

(١) أحدث طبعات (العقد الفريد) اثنتان . الاولى : في ٨ أجزاء بتحقيق محمد سعيد العريان ، طبعت في مطبعة الاستقامة بمصر عام ١٩٤٠ . وهى الطبعة التى اعتمدها فى هذه الدراسة ، والثانية : فى ٧ أجزاء بتحقيق احمد أمين وزملائه ، بدىء بطبعها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر عام ١٩٤٠ أيضاً .

(٢) من أمثلة هذا ان قصرين من قصور قرطبة كان يسمى أحدها (الدمشق) والثاني (الرصافة) وان أحد ابوابها كان يسمى باب (جيرون) . ذكر ذلك المقرئ فى (نفح الطيب) .

(٣) هو احمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الاندلسي ، توفي فى خلافة الناصر سنة ٣٢٨ هـ وقد تجاوز الثمانين . كان أديباً شاعراً ، وقد بث فى ابواب كتابه (العقد الفريد) كثيراً من شعره .

(٤) يرى الاستاذ محمد سعيد العريان محقق (العقد الفريد) أن ابن عبد ربه فرغ من تأليف كتابه قريباً من سنة ٣٢٢ هـ أى قبل موته بست سنين تقريباً . ويعتمد =

إلا أن يخرج بالفكرة التالية ، وهي أن ابن عبد ربه قد قرأ **عيون الرضا** فأعجب به وبطريقته ، وأراد أن يمنع على مثاله كتاباً للاندلسيين أوفى بالحاجة وأحسن تنظيماً وتبويباً .

وطريقة ابن عبد ربه ، كما يحدثنا عنها في مقدمة كتابه ، هي طريقة ابن قتيبة ذاتها ، من حيث جمع الاخبار وتلقطها من هنا وهناك ، ثم تصنيفها في أبواب بحسب معانيها العامة . قال ابن عبد ربه في مقدمة **العقد الفريد** : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر . ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدور كل كتاب . (١) وما سواه فأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء فتطلبت نظائر الكلام ، وأشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، ونوادير الأمثال . ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه ، فجعلته باباً على حديثه ؛ ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره من كل باب . » وهذا الكلام يشبه إلى حد كبير ما قاله ابن قتيبة في **عيون الرضا** .

= في تقديره هذا على ارجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الناصر التي فصل فيها أخباره حتى ذلك التاريخ .

(١) المقصود بالفرش هنا ما يقدمه المؤلف من كلامه بين يدي كل كتاب ، مهداً به لذكر الاخبار والمختارات التي ينطوي عليها .

ويجبل الينا أن ابن عبد ربه ، وإن لم يصرح باسم ابن قتيبة ، فقد كان
يعنيه أكثر من سواه حين أشار في مقدمة كتابه الى مؤلفي كتب الادب
قبله ، والى رغبته في أن يكون كتابه أكمل من كتبهم ؛ وذلك حين يقول :
« وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون
الاخبار ، ولا جامعة لجل الآثار . فجعلت هذا الكتاب كافياً ، جامعاً
لا كثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة
الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس
الاخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب شعري ،
ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً
من المنظوم والمنثور . »

صنف ابن عبد ربه كتابه في خمسة وعشرين باباً ، بينها وبين أبواب
عيونه الاخبار العشرة شبه كبير . فهناك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين
هي : السلطان ، والحروب ، والعلم والادب ، والمواظف والزهد ، والطبائع
والطعام ، والنساء . كما أن عدداً آخر من أبواب العقدة نجد مفرقاً في
تضاعيف بعض ابواب عيونه الاخبار . فكتاب الرجوبة ، وكتاب الخطب
- وهما الكتابان الثاني عشر والثالث عشر من العقدة - كلاهما من موضوعات
كتاب العلم في عيونه الاخبار . وكتاب مخاطبة الملوك - وهو الكتاب
الخامس من العقدة - فرع من فروع كتاب السلطان في عيونه الاخبار .
وكتاب اخبار زياد والحجاج والطالبيين - وهو الكتاب السادس عشر من العقدة

معنى من معاني كتاب الحروب في عيون الاخبار. وأخبار النجدة والطفيليين -
التي تؤلف الكتاب الثاني والعشرين من العقد، نجد ما يماثلها في كتاب الطعام
من عيون الاخبار ... كل هذا يؤكد سير الاديب الاندلسي على نهج
سلفه البغدادي كما قدمنا .

ومن ابتكارات ابن عبد ربه في كتابه - وهو ابتكار ينسجم مع ذوق
الاندلسيين وعنايتهم بالزينة والزخرف - أنه سمي كل باب من الأبواب
الاثني عشر الاولى في كتابه باسم جوهرة من الجواهر الكريمة . فهو
يقول مثلاً : كتاب المولودة في السلطان ، وكتاب الفريدة في الحروب ،
وكتاب الزبرجدة في الاجواد والاصفاد ^(١) ، وكتاب الجمانة في الوفود ،
الخ .. وسمى الكتاب الثالث عشر باسم الواسطة ، وهي الحبة الوسطى
في العقد . وسمى الابواب الباقية ، من الباب الرابع عشر حتى الباب
الخامس والعشرين باسم الجواهر نفسها مكررة . فهو يقول : كتاب
المولودة الثانية في الفكاهات والملح ، وكتاب الفريدة الثانية في الطعام
والشراب ، وكتاب الزبرجدة الثانية في طبائع الانسان وساثر الحيوان ،
وكتاب الجمانة الثانية في المتنبيين والبخلاء والطفيليين ... الخ . من هنا
عنوان الكتاب : العقد الفريد ^(٢) ؛ إذ ان ابواب الكتاب تؤلف بمجموعها

(١) الاصفاد جمع صفد - بفتح الفاء - وهو العطاء .

(٢) يذهب بعض الباحثين الى ان اسم الكتاب في الاصل (العقد) ، وان وصفه بالفريد =

عقد امتناظراً، تتوسطه الواسطة، وتتقابل فيه الجواهر الكريمة من الطرفين.
وكتاب **العقد الفريد**، وإن ظهر في الاندلس، فإنه لا يختلف في الوانه
الثقافية عن كتب الادب المشرقية. ولولا النماذج الكثيرة التي يأتي بها
المؤلف من شعره الشخصي ويبثها هنا وهناك في مختلف ابواب
كتابه، ولولا بعض الاخبار الاندلسية القليلة التي يلقاها القارئ عرضاً
متناثرة في مواضع قليلة من الكتاب، لقلنا إن الكتاب بجملته صورة من
صور أدب المشرق. وهذا ما يفسر لنا القصة التي رواها ياقوت في **معجم الادباء** :
قال ياقوت : « بلغني أن صاحب بن عباد سمع بكتاب **العقد** فحرص حتى
حصل عنده . فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا
الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم، وأما هو مشتمل على اخبار
بلادنا، لا حاجة لنا فيه . فردّه .^(١) » ولسنا نرى من سبب لهذه الصبغة
المشرقية التي اصطبغ بها الكتاب سوى اعجاب الاندلسيين آنذاك بالمشرق،
أدبه وأدبائه، وحرصهم على أن يحدوا حذو الأدباء المشاركة في تأليفهم.
ولكن مهما يكن للصاحب بن عباد من رأي في **العقد**، فإن لهذا
الكتاب في نظر الباحثين والأدباء قيمة كبيرة بوصفه مصدراً غنياً من مصادر

= نعت متأخر، ولهم على ذلك ادلة . وهذا في الاصل رأي المستشرق الالماني بروكلمان .
انظر في هذا الموضوع كتاب جبرائيل جبور (ابن عبد ربه وعقده)، ص ٢٩-٣١.

(١) معجم الادباء : ج ٤، ص ٢١٤-٢١٥ .

تراثنا الأدبي العربي في المشرق . وليس لسخط الصاحب من سبب سوى أنه كان يطعم أن يرى في الكتاب صورة لأدب المغرب والاندلس فخاب ظنه . ولو أن الكتاب ظهر في ذلك العصر في بغداد ؛ أوقام على تصنيفه أحد أدباء المشرق لما قابله الصاحب بشيء من هذا الجرد . يضاف إلى هذا أنه - على ما بين كتاب العقر وكتب الادب المشرقية من تشابه في الغرض والمهاج والمادة - ليس في وسع أحد أن ينكر ما انفرد به هذا الكتاب من مادة أدبية وتاريخية ثمينة استقها مؤلفه من كثير من الكتب التي أصبحت اليوم أثراً بعد عين . وهذا وحده كاف ليحفظ للكتاب مكانه الى جانب دواوين الأدب الاخرى بين مصادرنا الادبية القيمة .

كتاب الامالي القالي^(١) :

ربما كان ذكر كتاب الامالي لآبي علي القالي البغدادي^(٢) من

(١) طبع كتاب « الامالي » في جزأين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ م . وألحق به جزء ثالث يتضمن « ذيل الامالي » و « النوادر » للمؤلف نفسه ، وجزء رابع يتضمن كتاب (التنبيه على اوهام ابي علي القالي في أماليه) لآبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ .

(٢) هو ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي - نسبة الى « قالي قلا » وهي بلد من اعمال ارمينية أصله منها - ؛ ويلقب بالبغدادي لطول مقامه في بغداد . درس في بغداد على كبار مشايخ عصره الحديث واللغة والنحو والادب ، ورحل الى الاندلس تلبية لدعوة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠ هـ ، فكان موضع اكرام الحكام والعلماء . وهناك =

خير ما ينجح به هذا الفصل ؛ لانه من أمتع الكتب الأدبية ، وأغناها مادة واضبطها رواية ، وأدقها تحقيقاً . ولا غرابة في ذلك ، فقد عرف المؤلف في عصره بصحة العلم وثقة الرواية حتى طبقت شهرته آفاق العالم الاسلامي آنذاك ، مما حمل الخليفة الأموي العظيم الناصر عبد الرحمن بن محمد أن يستدعيه من بغداد الى عاصمة ملكه قرطبة ليشرّف على تأديب ولده وولي عهده الحكم ، وليذيع في حاضرة الاندلس ما كان يعبه في صدره من علم وأدب . وهناك في قرطبة ذاتها ، وفي المسجد الجامع بالزهراء أيضاً ، كان يجلس القاضي كل خميس ليملي على طلابه دروساً ممتعة في الأدب ، طائفة بالاجبار والاشعار والامثال والبحوث اللغوية الشيقة ، تلك الدروس التي تألف منها كتاب الامالي الذي نحن بصددده . وكان يمي دروسه من حفظه ، مسبقاً كل خبر أو شعر يرويّه بأسناده ، على عكس مؤلفي الكتب الأدبية قبله ، كالبرد وابن قتيبة وابن عبد ربّه ، الذين لم يكونوا يعنون بذكر أسانيدهم او مصادرهم .

وانستمع إلى أبي علي القاضي يحدّثنا عن مضمون أماليه ، وطريقته في املائها ، بعد أن يقصّ علينا حديث رحلته ، وحديث الخليفة العظيم الذي أفاء عليه رعايته وهيئاً له أسباب تأليف كتابه . قال القاضي في مقدّمة كتابه : «إني لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة . فاغتربت

== قضى بقية حياته في التدريس والتأليف . الى ان توفي سنة ٣٥٦ هـ في خلافة الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر .

لِلرَوَايَةِ وَلِزَمَتِ الْعُلَمَاءُ لِلدِّرَايَةِ . ثُمَّ أَعْمَلَتْ ذَهْنِي فِي جَمْعِهِ ، وَشَغَلَتْ ذَهْنِي بِحِفْظِهِ حَتَّى حَوَيْتَ خَطِيرَهُ ، وَأَحْرَزْتُ رَفِيعَهُ ، وَرَوَيْتَ جَلِيلَهُ ، وَعَرَفْتُ دَقِيقَهُ ، وَعَقَلْتُ شَارِدَهُ ، وَرَوَيْتَ نَادِرَهُ ، وَعَلِمْتُ غَامِضَهُ ، وَوَعَيْتُ وَاضِحَهُ . ثُمَّ صَنَعْتُ بِالْكَتْمَانِ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ ، وَنَزَهْتُهُ عَنِ الْإِذَاعَةِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ مَكَانَهُ ، وَجَعَلْتُ غَرَضِي أَنْ أُوَدِّعَهُ مِنْ يَسْتَحِقُّهُ ، وَأَبْدِيهِ لِمَنْ يَعْلَمُ فَضْلَهُ ، وَأَجْلِبُهُ إِلَى مَنْ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ ... حَتَّى تَوَاتَرَتْ الْأَنْبَاءُ الْمُتَّفِقَةُ ، وَتَتَابَعَتِ الصِّفَاتُ الْمُتَّصِمَةُ ، الَّتِي لَا تَخَالُجُهَا الشُّكُوكُ ، وَلَا تَمَزُجُهَا الظُّنُونُ ، بِأَنْ مَشَرَّ فَيَ فِي عَصْرِهِ أَفْضَلُ مِنْ مَلِكِ الْوَرَى ... أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَحَافِظُ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَامِعُ الْمَشْرُكِينَ ، وَدَافِعُ الْمَارْقِينَ ... عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ... فَخَرَجْتَ جَائِداً بِنَفْسِي ، بِإِذْلَالِ لِحْشَاشَتِي ، أَجُوبُ مَتُونِ الْقَفَارِ ، وَأَخُوضُ لَجَجِ الْبَحَارِ ، وَأُرَكِبُ الْفَلَوَاتِ ، وَاتَّقَحِمُ الْغَمَرَاتِ ... فَهَنَّ اللَّهُ جِلَّ وَعِزَّ بِالسَّلَامَةِ ، وَحَبَّابُ تَعَالَى ذِكْرَهُ بِالْعَافِيَةِ ، حَتَّى حَلَلَتْ بَعْصَرَةَ ^(١) الْحُجُوفِ ، وَعَصْمَةَ الْمُضَافِ ، وَالْمَحَلَّ الْمَرَعِ ، وَالرَّبِيعَ الْخَضِبِ ، فَنَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ... وَصَحِبَتِ الْحَيَا الْمَحْسِبَ ^(٢) وَالْجَوَادَ الْمُفْضِلَ ، الَّذِي إِذَا وَعَدَ وَفَى ، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا ... الْحُكْمُ ، فَرَأَيْتُهُ - أَيْدِي اللَّهِ - أَجَلَّ النَّاسِ بَعْدَ أَبِيهِ خَطَرًا ، وَأَرْفَعَهُمْ قَدْرًا ... فَتَابَعَا لَدِيَّ النِّعْمَةَ ، وَوَاتَرَا عَلَيَّ الْإِحْسَانَ حَتَّى

(١) الْعَصْرَةُ : الْمَلْجَأُ .

(٢) الْحَيَا : الْغَيْثُ ، وَالْمَحْسَبُ : الْمَجْزَلُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : أَحْسَبُهُ وَحَسَبَهُ - بِتَشْدِيدِ السِّينِ - إِذَا آوَاهُ وَاطْعَمَهُ وَسَقَاهُ .

ابدیت ما كنت له كاتماً ... فأملت هذا الكتاب منه حفظي في الأُضمة
بقرطبة ، وفي المسبح الجامع بالزهراء المباركة . وادعته فنوناً من الاخبار ،
وضروباً من الاشعار ، وغرائب من اللغات . على اني لم اذكر فيه باباً
من اللغة إلا اشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولا فناً من الخبر
إلا انتخلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته ، ثم لم اخله من
غريب القرآن ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . على اني اوردت
فيه من الابدال ما لم يورده احد ، وفسرت فيه من الاتباع ^(١) ما لم يفسره
بشر ، ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعاً ، والديوان
الذي ذكر فيه اسم الامام كاملاً . »

والكتاب في جملته مجموعة جد غنية من الاخبار والنصوص الجميلة ،
ولاسيما الشعر النادر القيم الذي يدل اختياره على ذوق مرهف اصيل
ورواية واسعة متنوعة ، ويتخلل هذه الاخبار والنصوص شروح وتعليقات
لغوية تدل على اطلاع واسع على اللغة العربية . غريبها وخصائصها . واذا
كان كتاب الطامل المبرّد كتاب أدب ونحو ، فأما لي كتاب أدب ولغة .
أما طريقة الكتاب فهي الطريقة نفسها المتبعة في تأليف هذا النوع
من الكتب ، من حيث الاستطراد المستمر ، وعدم الثبات على موضوع
واحد . وربما كان كتاب الامالي من حيث مبناه أقرب الى كتاب البيان

(١) بحوث الابدال والاتباع يجدها الطالب في الجزء الثاني من (الامالي) .

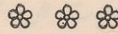
والشيبين أو الطامل منه إلى عيون الرضا أو العقر الفريد، ذلك أنه عبارة عن
أمالٍ متتالية في اللغة والأدب لم يحاول مملئها أن يصنفها في أبواب كما فعل
ابن عبد ربه، أو ابن قتيبة قبله.



هذا أشهر ما ألف خلال القرنين الثالث والرابع، في مشرق العالم العربي
ومغربيه، من كتب الأدب، أو من دواوين الأدب كما يسميها ابن خلدون.
وليس معنى هذا أننا جئنا في هذا الفصل على ذكر جميع الكتب
المصنفة في هذا الفن، وإنما لم يكن لنا بد من الاصطفاء في مثل هذا
الكتاب المحدود في خطته وممرماه. وكان جديراً بنا أن نذكر هنا كتاب
الروغاني لأبي الفرج الاصفهانى، فهو بلا ريب من أشهر كتب الأدب
في القرن الرابع واحفظها بالمعارف. ولكن منهاج أبي الفرج في كتابه هذا
يختلف عن منهاج مؤلفي كتب الأدب التي ذكرناها من بعض الوجوه.
ولذا رأينا أن نترك الكلام على هذا الكتاب إلى الفصل القادم، بين مصادرنا
الهامة في تراجم الشعراء.

واقتصرنا على الإشارة إلى أشهر الكتب المؤلفة في القرنين الثالث والرابع
لا يفيد أن حركة التأليف في هذا المضمار قد توقفت فيما بعد. بل لقد استمر
التأليف على هذا النحو في أواخر القرن الرابع والقرون التالية. وظهرت

في هذا الباب مصنفات كثيرة معروفة وما أمالي السيد المرتضى (١) ،
وأمالي ابن الشجري (٢) ، وزهر الآداب للحصري القيرواني (٣) سوى
بعض معالم التأليف في هذا الباب خلال القرنين الخامس والسادس . بل
إن الموسوعات الأدبية الضخمة التي ظهرت في عصور الانحطاط ، مثل
صبح الأعشى للقلقشندي ونهاية الأرب للنويري ، ليست سوى امتداد
مضخم لحركة تأليف دواوين الأدب حسب الطريقة التي وصفناها .
ولكننا رأينا الاقتصار هنا على ذكر أشهر كتب الادب في القرنين
الثالث والرابع لأنها أقدم عهداً وأكثر أصالة مما ظهر بعدها .



(١) هو الشريف ابو القاسم علي بن الحسين بن موسى اخو الشريف الرضي
الشاعر المشهور ، توفي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ . طبعت « اماليه » سنة ١٩٠٧ م .
(٢) سبقت ترجمة ابن الشجري ، كما سبقت الاشارة الى اماليه في ص ١٠٢ ،
حاشية (١) .

(٣) ابو اسحق ابراهيم بن علي القيرواني ، أديب مغربي من رجال القرن
الخامس ، توفي سنة ٤٥٣ هـ . طبع كتابه لأول مرة طبعة مستقلة في ٤ اجزاء
بعناية الاديب المصري المرحوم زكي مبارك عام ١٩٢٥ م .

الفصل الثالث

كتب تراجم الادباء

كتب التراجم من المراجع التي لا يكاد يستغني عنها الباحث ، لأن النابغين في كل علم وفن هم معالم تطوّر حياة الانسان الفكرية ، وتاريخهم تاريخها . يضاف الى هذا أن الكشف عن الاعلام التي يكثر ورودها في النصوص والوثائق يزيد هذه النصوص والوثائق وضوحاً ويقربها من الافهام .

ولقد كان من حق هذا الفصل أن يرجئه الى حين الكلام على الحركة التاريخية في الباب الثالث من هذا الكتاب . ولكننا رأينا استباق الأمور ، وأن نخص كتب تراجم الأدباء بفصل من هذا الباب المعقود على حركة التأليف في الأدب ، لما بين هذه الكتب وبين حركة التأليف الأدبي من صلة واشجة . ففن تدوين التراجم فرع هام من فروع الحركة التاريخية ؛ ولكن تدوين تراجم الادباء ، مع ارتباطه الشديد بالمنهج التاريخي ، وثيق الصلة بالبحوث والدراسات الادبية خاصة .

وقد غني أسلافنا بتدوين تراجم الرجال على اختلاف عصورهم

وأوطانهم ، وتنوع طبقاتهم واختصاصهم . وسنرى المدى الذي بلغته عنايتهم هذه اثناء كلامنا في الباب القادم على الحركة التاريخية . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن المكتبة العربية هي من أغنى مكتبات الأمم بكتب التراجم . وإن دلّ هذا على شيء فعلى تقدير الثقافة العربية للفردية الإنسانية واحترامها للإنسانية من خلال الإنسان . ومبعث هذه العناية في البدء إنما هو الاهتمام بتدوين تراجم الصحابة وطبقات المحدثين ، لما لهذا التدوين من صلة بالدين والتشريع . وهذا يحاكي ما كنا اشرنا اليه آنفاً من أن الدافع الديني كان أيضاً من أقوى البواعث على العناية برواية اللغة والأدب ، لما له من شأن في توضيح معاني القرآن والحديث . وكما أن الحركة اللغوية والأدبية المنبعثة عن اهتمام ديني في بادئ الأمر قد اتسعت آفاقها فيما بعد ، وتشعبت فروعها ، وأصبحت مقصودة لذاتها ؛ كذلك الأمر في فن التراجم ؛ إذ سرعان ما تعددت حلقاته واتسعت حتى شملت أجناساً من طبقات الرجال والنساء ممن ليس لتراجمهم صلة بشؤون الدين والتشريع .

ورجال الأدب من شعراء وكتاب ولغويين ونحويين ومصنفين كانوا كسواهم موضع عناية المؤرخين ومدوني التراجم . ولتسهيل البحث في الكتب المصنفة في تراجمهم سنقسم هذه الكتب بحسب مضمونها الى الزمر الثلاث التالية :

أ - الكتب المصنفة في تراجم الشعراء .

ب - الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة.
ج - الكتب المصنفة في تراجم الأدباء عامة دون تمييز في الاختصاص.
وجرياً على عادتنا في هذا الكتاب سنقتصر على ذكر أشهر الكتب في كل زمرة من هذه الزمر ، مع الحرص على مراعاة الترتيب الزمني في عرضها ، كي يتشبع القارئ بنفسه تطوّر التأليف في هذا الباب من جيل إلى آخر .

أ - الكتب المصنفة في تراجم الشعراء

إنّ الكتب التي جمعت فيها تراجم الشعراء كثيرة ومتنوعة : فمنها ما قصر مثلاً على تراجم قدماء الشعراء الجاهليين والاسلاميين ؛ ومنها ما اتسع لأخبار الشعراء الذين سبقوا عصر المؤلف جميعهم ؛ ومنها ما تناول قطراً بعينه فترجم لشعرائه لا يتعداهم ؛ ومنها ما شمل أقطار العالم العربي كله آنذاك ؛ ومنها ما توجه اتجاهاً معجماً فذكر كل الشعراء ولم يغفل ذكر أحد منهم ولو كان مقللاً أو مغموراً ؛ ومنها ما بُني على الانتقاء فلم يذكر سوى المشهورين الذين يكثر تداول شعرهم او الاحتجاج به . وسنرى فيما سنذكره أمثلة لهذه الاتجاهات كلها في تدوين تراجم الشعراء .

طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ^(١) . — هذا الكتاب الذي

(١) طبع الكتاب طبعة أخيرة جيدة ، بعنوان (طبقات فحول الشعراء) ، بتحقيق

محمود محمد شاكر . نشرته دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

ألفه محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ^(١) هو من أقدم الكتب التي وصلتنا في تراجم الشعراء. والكتاب كما يظهر من عنوانه هو من كتب الطبقات. وتأليف الطبقات في الأصل معناه تصنيف رجال علم أو فن أو مذهب بحسب أزمانهم، كل جيل في طبقة. ومنشأ هذا الاتجاه في تدوين التراجم إنما هو علم الحديث ورغبة أصحابه في تصنيف رواته على طبقات، حتى تعرف أزمانهم وأجيالهم، وبذلك يتيسر للحدثين دراسة الأسانيد ونقدها وتبين ما قد يكون فيها من خلل. ثم انتقل تصنيف الطبقات من الحديث إلى العلوم الأخرى، فألفت الكتب العديدة في طبقات القراء والفقهاء والحكماء والأطباء والنحاة والشعراء. ولكن هذا المصطلح، أي مصطلح الطبقات، لم يحتفظ بمدلوله الزمني هذا في جميع كتب التراجم، بل فقد في بعضها حتى أصبح أحياناً مرادفاً لقولنا: كتاب أو معجم في التراجم. يدل على ذلك مثلاً بعض كتب الطبقات التي رتب فيها التراجم على حروف الهجاء، ككتاب السيوطي الذي سيرد ذكره في تراجم أصحاب اللغة، وعنوانه: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**..

هذا المصطلح قد يطلق أحياناً ويراد به تصنيف المترجم لهم في طبقات، لا بحسب أجيالهم وأزمانهم، ولكن بحسب منازلهم وأقذارهم

(١) سبقت ترجمة ابن سلام الجمحي في ص (٨١)، حاشية (٧)

في الفن أو العلم الذي عرفوا به . وهذا المعنى القيمي ، لا الزمني ، هو المقصود في كتاب ابن سلام الذي نحن بصدده . فقد قسم ابن سلام كتابه إلى قسمين ذكر في الأول منهما مشاهير شعراء الجاهلية ، وفي الثاني مشاهير شعراء صدر الاسلام . أما المخضرمون فلم يعتبرهم المؤلف — وهو على حق في ذلك — زمرة زمنية مستقلة ، بل ذكر بعضهم بين شعراء الجاهلية وبعضهم بين شعراء الاسلام . فذكر مثلاً عمرو بن أحمـر الباهلي ، وأبا زيد الطائي ، وسحيم بن وثيل الرياحي ، وحـميد بن ثور ، والأعـلب العـجـلي — وهم جميعاً من المخضرمين — في طبقات الاسلاميين ، كما ذكر كعب بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي ، وأبا ذؤيب الهذلي ، والشمـاخ بن ضرار ، ولبيد بن ربيعة وهم جميعاً من المخضرمين أيضاً — في طبقات الجاهليين .^(١)

وقد اختار ابن سلام من الجاهليين ومن جالسهم بهم من المخضرمين أربعين شاعراً جعلهم في عشر طبقات ، كل أربعة منهم في طبقة ، بعد أن نزلهم منازلهم والف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه . وعلى هذا النسق نفسه جرى في تصنيف القسم الثاني من كتابه الخاص بالشعراء الاسلاميين ومن يجالسهم من المخضرمين . وألحق المؤلف بطبقات الجاهليين طبقات

(١) يؤخذ على الكتاب مع ذلك بعض الاضطراب الزمني ، إذ أن بعض الشعراء الجاهليين — مثل بشامة بن الغدير وقراد بن حنش — قد ذكروا في طبقات الاسلاميين .

أخرى لم يشأ أن يدجها بالطبقات العشر الأولى. وذلك لأن شعراء هذه الطبقات صفات خاصة تجمع بينهم وتميزهم من سواهم من شعراء الجاهلية، إما من حيث الفن الشعري الذي اشتهروا به، أو من حيث البيئة التي نشؤوا فيها، أو من حيث الدين الذي كانوا يدينون به. فهناك طبقة أصحاب المراثي، وهي مؤلفة من أربعة شعراء: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي. وهؤلاء الشعراء إما عرفوا بفن واحد، هو الرثاء، على عكس قول الطبقات العشر الأولى الذين نظموا في الفنون الشعرية المختلفة. وهناك أيضاً طبقة شعراء القرى العربية. وهؤلاء يتميزون بنشأتهم الحضرية. وتضم هذه الطبقة ثلاثين شاعراً صنّفوا زمراً بحسب القرى التي عاشوا فيها: فهناك شعراء المدينة، وشعراء مكة، وشعراء الطائف، وشعراء البحرين. وهناك أخيراً شعراء يهود المدينة في زمرة على حدة.

ويبلغ عدد الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين ذكرهم ابن سلام في كتابه هذا مئة وأربعة عشر شاعراً جلّهم من المشاهير الذين يكثر الاحتجاج بشعرهم في العربية. وتراجم ابن سلام تتضمن بوجه عام نسب الشاعر وبعض أخباره المشهورة وآراء العلماء فيه ونماذج مختلفة من شعره. ورواية ابن سلام لهذه الأخبار والأشعار مشفوعة غالباً بأسنادها، وتدلّ على كثير من التحري والدقة. وتختلف هذه التراجم طولاً وقصراً: فمنها ما يطول حتى يتجاوز الصفحات العشر، وفي هذه

الحال تكون الترجمة وافية ومنطوية على نخبة قيمة من شعر الشاعر وأخباره وأقوال النقاد فيه . ومنها ما يقصر حتى يكون في أسطر أو كلمات معدودة ، وفي هذه الحال تفقد الترجمة كثيراً من قيمتها .

ويمتاز هذا الكتاب بمقدمته الجليلة التي هي من أقدم ما كتب في النقد الأدبي . وقد ضمنها ابن سلام صفوة آرائه في النقد وما يحتاج إليه صاحبه من ثقافة وخبرة ، وفي نشأة علم العربية ، وفي أولية الشعر وما اعتري روايته من وضع وفسادٍ على أيدي بعض الرواة الذين لم تتوفر فيهم شروط الأمانة العلمية . وهذه المقدمة ، على اضطرابها وعبث النساخ بها ، تدلّ دلالة واضحة على ما كان يتحلّى به ابن سلام من ورع علمي ، وفكر ناقد ، وحس نقدي أصيل .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: (١)

وهذا الكتاب الذي ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ هو أيضاً من أقدم الكتب العربية التي نعرفها في تراجم الشعراء . وقد حدّد المؤلف موضوع كتابه في الأسطر الأولى من مقدمته حيث يقول : « هذا كتاب ألفته في الشعراء . أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ،

(١) طبع كتاب (الشعر والشعراء) طبعة أخيرة حسنة بتحقيق أحمد محمد شاكر ،

نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة في جزأين سنة ١٩٥٠ .

وأحواهم في أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذوه عنهم المتأخرون ... وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عزّ وجلّ وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما من خفي اسمه وقلّ ذكره وكسده شعره وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقلّ من ذكرت من هذه الطبقة ! » .

ويتضح من هذا القول أن ابن قتيبة لم يشأ أن يجعل من كتابه معجماً يذكّر فيه جميع الشعراء ، وإنما اختار له أشهر الشعراء ، ولا سيما أولئك الذين يكثر العلماء من الاستشهاد بأشعارهم في علوم الدين والعربية . ويختلف هذا الكتاب عن الكتاب السابق من حيث المضمون والخطّة . أما من حيث المضمون فإن ابن قتيبة لم يقتصر في كتابه على ذكر الشعراء الجاهليين والإسلاميين كما فعل ابن سلام ، بل تناول بالذكر أيضاً عدداً من المحدثين الذين عاشوا في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . وقد دفعه إلى ذلك مبدأ المساواة في النقد بين القدماء والمحدثين ، وهو المبدأ الذي نادى به في مقدمته ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، مخالفاً بذلك مذهب بعض العلماء الذين كانوا يفرطون في التعصب للقديم ، وذلك حين يقول :

« ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ، سبيل من
 قلد او استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة
 لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل
 على الفريقين ، وأعطيت كلا حظاً ، ووفرت عليه حقه . فإني رأيت من
 علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ،
 ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قليل في زمانه ، أو أنه
 رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به
 قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عياده . وجعل كل
 قديم حديثاً في عصره . »

وأما من حيث الخطأ ، فإن الشعر والشعراء كتاب في تراجم الشعراء
 وليس كتاب طبقات ككتاب ابن سلام . فابن قتيبة ينظر في كتابه إلى
 كل شاعر بمفرده ، فيذكر أخباره وأشعاره وأقوال العلماء فيه ، ولا
 ينظر إلى الشعراء نظرة تصنيفية طبقية هي — مهما يقل فيها — موضع
 للاخذ والرد .

والمتصفح لكتاب ابن قتيبة يرى أن المؤلف قد حرص فيه على إيراد
 تراجم الشعراء مراعيًا في تتابعها الترتيب الزمني ، لا على وجه الدقة
 والضبط ولكن في خطوطه العامة . نعم ، إن ابن قتيبة لم يشر في كتابه
 إلى رغبته في اتباع هذا النهج الزمني في ترتيب تراجمه ؛ ولكنه بصورة
 عفوية يبدأ بإيراد تراجم الجاهليين والخنزرمين ، ثم ينتهي بتراجم الاسلاميين ،

وينهي كتابه بتراجم المحدثين أمثال أبي العتاهية والعباس بن الاحنف
ومسلم بن الوليد ودعبل ومن في طبقتهم . هذا مع العلم ان المؤلف لم يراع
هذا الترتيب مراعاة دقيقة ؛ فقد يذكر بعض المخضرمين قبل الجاهليين ،
وقد يذكر بعض الجاهليين بعد الاسلاميين . ولكن منهاج الكتاب يبقى
بوجه عام ذا صبغة زمنية واضحة .

وما دمنافي معرض المقارنة بين كتابي ابن سلام وابن قتيبة فلا يفوتنا
أن نشير الى أن كتاب **الشعر والشعراء** هو أوسع الكتابين وأعزرها بالتراجم .
ذلك ان ابن قتيبة يتناول من العصور ما لا يتناوله ابن سلام . ولذا بلغ عدد
التراجم في كتاب ابن قتيبة ستاً ومئتي ترجمة ، وهذا العدد يبلغ مثلي
عدد التراجم في طبقات **الشعراء** .

ولهذا الكتاب ، كما لكتاب ابن سلام ، مقدمة مسببة لها مكانتها
المرموقة بين آثار النقد الادبي عند العرب ؛ تحدث فيها ابن قتيبة حديثاً
رصيناً في الشعر وضروبه ، وفي المبادئ التي يجب أن يلزم الناقد بها نفسه
حتى يكون عادلاً في حكمه ، وفي إطار القصيدة العربية وتتابع المعاني
فيها ، وفي الطبع والتكلف ، وفي عيوب الشعر ، وما الى ذلك من
الموضوعات التي لها شأنها في النقد الأدبي ، وقد كان لهذه المقدمة أثرها
البين في كثير مما كتب بعدها في هذا الباب .

كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني (١)

سبق أن أشرنا الى أن هذا الكتاب الثمين ليس قاصراً على تراجم الشعراء (٢) فهو في الحقيقة من أغنى الموسوعات الأدبية القديمة التي تعز بها المكتبة العربية . ولكن هذا الكتاب ، على غزارة مادته وتنوع موضوعاته ، هو أوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

وغرض المؤلف الأول من كتابه إنما هو تثبيت أشهر أغاني عصره

(١) ابو الفرج الاصبهاني ، هو علي بن الحسين بن محمد القرشي ، من سلالة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . والأصبهاني امام من أئمة الأدب في القرن الهجري الرابع ، ولد سنة ٢٨٤ هـ في اصبهان — ومن هنا لقبه — وقد توفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ ، على اختلاف في هذا التاريخ . أما كتاب (الاغاني) فقد طبع لأول مرة بالقاهرة في ٢٠ جزءاً ، وذلك بمطبعة « بولاق » سنة ١٢٨٥ هـ « ١٨٦٨ م » ، ثم اكمله المستشرق « رودولف برونو » بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٢٠٦ هـ « ١٨٨٨ م » بمدينة « لندن » الهولندية . وصنع المستشرق الطلياني « جويدي » وبعض معاونيه فهارس هجائية وافية لهذه الطبعة طبعت باللغة الفرنسية في مجلد ضخيم سنة ١٣١٨ هـ « ١٩٠٠ م » في مدينة « لندن » ايضاً . ثم طبع (الاغاني) بعد ذلك طبعة ثانية في القاهرة بنفقة الحاج محمد الساسي وتم طبعه سنة ١٣٢٣ هـ وقد ظهرت هذه الطبعة الثانية في « ٢١ » جزءاً ، واذيف اليها الفهارس التي وضعها المستشرق « جويدي » وقد بدأت دار الكتب المصرية عام ١٩٢٧ م بطبع الكتاب للمرة الثالثة طبعة انيقة مصححة ، ولكن هذه الطبعة لم تنته بعد .

(٢) انظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب

بكلماتها وألحانها . فقد كان الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) أمر بعض مغني عصره أن يصطفوا له من بين الأغاني المشهورة مئة أغنية أو صوت . ولما تولى الخلافة حفيده الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) طلب الى اسحق بن ابراهيم الموصللي ، اشهر مغني ذلك العصر ، أن يعيد النظر في هذه الاصوات المئة . وكانت نقطة الانطلاق في كتاب ابي الفرج تثبيت هذه الاصوات بتقيد كلماتها وألحانها ، وذكر اسماء ملحنينها وشعرائها . ومن هنا العنوان الذي اختاره لكتابه . ولكن قيمة الكتاب الموسيقية لا تكاد في الحقيقة تذكر إلى جانب ما انطوى عليه من ثروة أدبية كبيرة . ذلك أن أبا الفرج كان إذا ذكر صوتاً من الاصوات أسهب في ترجمة الشاعر الذي اختير هذا الصوت من شعره كما أسهب في ترجمة المغني الذي وضع لحنه . وقد يتفق أن يكون الشعر منسوباً لأكثر من شاعر واحد ، أو أن يكون قد وضع له أكثر من لحن واحد ، فلا يتردد أبو الفرج في ذكر تراجم كل الشعراء الذين ينسب اليهم هذا الشعر وكل المغنين الذين تغزى اليهم تلك الألحان . كما أن الكلام على صوت من الاصوات وعلى ملحنه كثيراً ما يستدعي ذكر اصوات أخرى عرف بها هذا الملحن ، فلا يتردد المؤلف في ذكر اخبار الشعراء الذين تنسب اليهم تلك الاصوات . وهكذا غدا الكتاب سجلاً ضخماً لتراجم اعلام الشعر والغناء في عصر أبي الفرج والعصور التي سبقتة ، كما غداً سجلاً للحضارة العربية والاسلامية في كثير من مظاهرها .

وليس يعيننا كتاب الاغانى في بحثنا هذا إلا من حيث كونه مصدراً من مصادرنا الهامة في تراجم الشعراء^(١). ففي هذا الكتاب ما يقرب من خمسةة ترجمة لخمسةة شاعر وشاعرة عاشوا في الجاهلية وصدر الاسلام والعصر العباسي الاول. وجل هذه التراجم شديدة التفصيل غزيرة المادة تحتوي على قسط وافر من أخبار الشعراء المترجم لهم ومن آثارهم. بل إن بين هذه التراجم ما لو أفرد عن الكتاب لجاء كتاباً مستقلاً بنفسه.

وكان أبو الفرج الاصبهاني يجمع بين سعة الرواية والحدق في الدراية، كما كان معروفاً بحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه^(٢). فكان يروي ما يروي في كتابه مرفقاً بالأسانيد المطولة، كما كان يشير إلى مصادره المكتوبة في كثير من الأحيان. وكان أكثر تعويله في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد، كما يذكر ابن النديم في الفهرست^(٣)، وكل من تصفح هذا الكتاب الجليل لابدّ مقدّر ما بذل في تصنيفه من جهود، ومقتنع بأن مؤلفه لم يكن يغالي كثيراً حين زعم أنه

(١) هنالك دراسات تناولت كتاب الاغانى بالتفصيل، منها كتاب «دراسة الاغانى» للاستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب بدمشق، طبع في دمشق عام ١٩٥١. وكتاب (أبو الفرج الاصبهاني وكتابه الاغانى)، لمحمد عبد الجواد الاصمعي، نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ ايضاً.

(٢) معجم الادباء: ج ١٣، ص ٩٥

(٣) الفهرست: ص ١٦٧.

أنفق خمسين عاماً من حياته في جمع مادة كتابه . ولا شك أن أبا الفرج قد صدر في كتابه هذا عن كل ما ألف قبله في الشعر والشعراء . وكثير من المصنفات التي صدر عنها أبو الفرج واستقطرها في أغانيه قد فقدت اليوم . ولا ريب في أن وصول **الروغاني** بتمامه إلينا يخفف من أسفنا الشديد على فقد هذه المصنفات . ذلك أن أبا الفرج عرف كيف يصهر في كتابه الرحب أئمن معارف عصره الأدبية ، بعد أن استقاه من عشرات الكتب . وهذا معنى ما روي من أن الكاتب والوزير البويهى المشهور **الصاحب ابن عباد** ، الذي كان مولعاً باقتناء الكتب حتى اجتمع منها في خزانته ما لم يجتمع عند غيره ، كان إذا سافر استصحب معه من الكتب ما يحمل على ثلاثين جملاً ، فلما وصل إليه كتاب **الاغاني** استغنى به عنها .

وروى **ياقوت** في **اخبار ابي الفرج** ^(١) أن **الصاحب بن عباد** هذا لما علم أن **سيف الدولة بن حمدان** كافأ أبا الفرج على كتابه **الاغاني** بألف دينار قال : « لقد قصّر سيف الدولة ! وانه يستأهل أضعافها . ولقد اشتملت خزائني على مئتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميّري غيره ، ولا راقني منها سواه . »

وبين **الفهارس الكثيرة** التي صنعها **المستشرق (جويدي)** للكتاب ، فهرس بأسماء الشعراء الذين ورد ذكرهم فيه . وهذا **الفهرس** يهدي المراجع

بسهولة الى التراجم التي يبحث عنها .

معجم الشعراء للمرزباني^(١) والمؤتلف والمختلف للأصمدي^(٢)

وهذان كتابان آخران من الكتب المصنفة في تراجم الشعراء خلال القرن الهجري الرابع . وقد ذكرناهما معاً ، وإن اختلف مؤلفاهما ، لأنهما في طبعتهما الوحيدة التي بين أيدينا منهما ، قد نشرتا معاً في مجلد واحد .^(٣)

أما معجم الشعراء فهو ، كما يفهم من عنوانه ، معجم رتبت فيه أعلام الشعراء على الحروف الهجائية ، مع مراعاة أوائل الاسماء وصرف النظر عن الألقاب والكنى . وقد حاول المرزباني في هذا المعجم الأول من نوعه بين كتب تراجم الشعراء أن يستقصي ذكر الشعراء قاطبةً ، مشهورهم ومغمورهم ، مكثريهم ومقلهم ، حتى ضمنه ما لا يقل عن خمسة آلاف اسم كما يذكر ابن النديم .^(٤) ولكن الذي يؤسف له أن هذا المعجم القيم لم

(١) هو أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، أحد المؤرخين الأدباء في القرن الرابع ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤ هـ . وهو صاحب كتاب « الموشح » المشهور .

(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الأديب الناقد المعروف صاحب كتاب « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » توفي سنة ٣٧٠ هـ .

(٣) طبع الكتابان في جزء واحد نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة عام ١٣٥٤ هـ .
باشراف المستشرق (كرنكو)

(٤) انظر الفهرست : ص ١٩٢

يصلنا بتمامه ؛ إذ لم يعثر الباحثون إلا على قسمه الأخير الذي يتضمن أسماء الشعراء من حرف العين - مادة : عمرو - حتى آخر الحروف الهجائية . ولو أن هذا الكتاب وصلنا بتمامه لكان أوفى سجل نرجع إليه للبحث عن أسماء شعراء العربية من أقدم العصور حتى نهاية القرن الهجري الثالث .

وأما المؤلف والمؤلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم فهو أيضاً معجم لأعلام الشعراء مرتب على الحروف الهجائية ؛ إلا أن الآمدي جمع فيه أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم في زمر يسهل معها بيان ما كان منها مؤتلفاً ، أو مختلفاً ، أو متقارباً في اللفظ ، أو متشابهاً في الرسم . فلا سم الواحد كثيراً ما يؤلف بين عدد من الشعراء . فما أكثر من يسمى من الشعراء بامرئ القيس أو بالشماخ ! وما أكثر من يلقب منهم بالأمسي أو النابغة ! وقد جهد الآمدي أن يعرف كلاً من هؤلاء الشعراء الذين اختلفت أسماؤهم حتى لا يختلط أمرهم على الباحث . كما أن هنالك كثيراً من الأسماء أو الألقاب تتقارب في اللفظ أو في الخط فلا يفرق بينها إلا الشكل أو النقط . فبين الشعراء يزيد وبريد ، والأشعر والأشعر ، وسهم وشهم ، وجريز وحريز ، والبعيث والنعيت ، وخباب وخباب ، والأغر والأعز ولا شك أن مثل هذه الأسماء والألقاب المتقاربة في حاجة إلى تمييز وإيضاح حتى لا تلتبس على الباحث أو القارئ ؛ إذ أنها أكثر تعرضاً من سواها لخطر التصحيف . وقد جمع الآمدي في كتابه هذا كل اسم أو لقب مشهور مع ما يشابهه لفظاً أو رسماً من الأسماء

والألقاب ، ثم ميز بين أصحاب هذه الأسماء ذاكراً نسب كل منهم وطرفاً من أخباره وشعره .

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن التراجم في هذين الكتابين مقتضبة جداً لا تنفع الغلّة . ذلك أننا هنا أمام معاجم غايتها الأولى تقصّي أسماء الشعراء وضبط ألقابهم وكنابهم على اختلاف طبقاتهم وأقذارهم ، ولسنا أمام كتب خصصت بالشعراء المشهورين وحدهم .

بشيرة الدهر للثعالبي : (١)

هذا الكتاب يختلف عن الكتب السابقة بكونه مقصوداً على شعراء عصر معين ، هو عصر المؤلف ، أي : القرن الهجري الرابع . وتألّف هذا الكتاب الضخم في ذلك العصر ، إن دلّ على شيء ، فعلى اهتمام الأوساط الأدبية آنذاك بالشعر المحدث والشعر المعاصر ، بعد أن كانت أنظار المصنفين من قبل تتجه أكثر ما تتجه إلى العناية بالقدماء قبل سواهم (٢) .

(١) سبقت ترجمة الثعالبي في ص ٥٨ ، حاشية «١» ، أما البيّمة فقد طبعت للمرة الأولى في دمشق سنة ١٣٠٣ هـ . ثم طبعت بعد ذلك في مصر مرتين الأولى سنة ١٣٥٢ هـ «١٩٣٥م» بتحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، والثانية سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧م بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) لا يفوتنا هنا أن نذكر أن الثعالبي لم يكن أسبق المصنفين إلى الاهتمام بالشعراء =

وقد قصّ علينا الثعالبي في مقدمة كتابه الأسباب التي حملته على تأليف كتابه هذا ، وبين المراحل التي مرّ بها كتابه فقال ما خلاصته : « وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم ، وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم .. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ، ولذة الجِدّة ، وحلاوة قرب العهد ، وازدياد الجودة على كثرة النقد ، غير محصورة بكتاب يضم نشرها ... وقد كنت تصدّيت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلثمئة ، والعمر في إقباله ، والشباب في نمائه ... فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان . وقضيت به حاجة في نفسي . وأنا لا أحسب المستعيرين يتعاورونه ، والمتسخين يتداولونه . حتى يصير من أنفـس ما تشحّ عليه أنفـس الأدباء والأخوان ، وتسير به الركبان إلى أقاصي البلدان ... فقلت : إن كان لهذا الكتاب محلّ من نفوس الأدباء ، وموقع من قلوب الفضلاء ، فيما لم يقرع من قبل آذانهم ولم يصفح أذهانهم ، فلم لا أبلغ به المبلغ الذي يستحقّ حسن الإجماع ... ؟ ولم لا أبسط فيه عنان الكلام ... ؟ إلى أن أدركت عصر السنّ والحكمة ، وشارفت أوان الثبات والمسكّة . فاختلست لمعة من

==المحدثين والمعاصرين . ولعل ابن المعتز كان اسبق الادباء الى العناية بهم حين ألف كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » في اواخر القرن الهجري الثالث . وقد طبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٩٣٩ م .

ظلم الدهر . وانهزت رقدةً من عين الزمان ... واستمرت في تقرير
هذه النسخة الأخيرة وتحريرها من بين النسخ الكثيرة ، بعد ان غيرت
ترتيبها وجددت تبويبها ... فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان
الفضل ، ونجوم الأرض من أهل العصر ، ومن تقدمهم قليلاً وسبقهم
يسيراً ، ما لم تأخذ الكتب العتيقة غره .

واضح من هذا الكلام أن الشعالبي ألف كتابه ، في نسخته الأولى ،
سنة ٣٨٣ هـ . وكان إذ ذاك في الرابعة والثلاثين من عمره . ولما رأى
إقبال المتأدين على كتابه - وهو ما لم يكن يتوقع - حمله ذلك على إعادة
النظر في كتابه بعد أن تقدمت به السن ، فحرر إذ ذاك النسخة الأخيرة
من الكتاب ، بعد أن زاد في النسخة الأولى ، ونقص منها ، وغير ترتيبها
وتبويبها . وأغلب الظن أن هذه النسخة الأخيرة لم تظهر إلا في مطلع
القرن الهجري الخامس .

وقد قسم الشعالبي كتابه إلى أربعة أقسام بحسب أقاليم الممالك الإسلامية
في عصره . فخصص القسم الأول بشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس ،
والقسم الثاني بشعراء العراق ، والقسم الثالث بشعراء فارس ، والقسم
الرابع والأخير بشعراء خراسان وما وراء النهر . وقد بدأ حديثه في
الكتاب بالكلام على شعراء الشام لأنه كان يرى أن شعراء هذا القطر
قد فضلوا سواهم من شعراء الاقطار الأخرى في القديم والحديث

لأسباب يعددها. (١)

وتختلف تراجم اليتيمة عن تراجم الكتب الأخرى بطغيان الأشعار المختارة فيها على أخبار الشاعر وتفاصيل حياته ؛ حتى يمكن اعتبار هذا الكتاب مجموعة مختارة من آثار شعراء القرن الرابع لا كتاباً في تراجمهم . وتختلف تراجم اليتيمة فيما بينها طويلاً وقصراً . فهناك تراجم غنية ومطولة لعدد من كبار شعراء القرن الرابع وأدبائه المرموقين كأبي فراس الحمداني وأبي الفرج البغاء ، والسري الرفاء ، وأبي إسحق الصابي ، وابن الحجاج ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والحوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني وأبي الفتح البستي ، وأبي الفضل الميكالي ، وغيرهم . بل إن بعض تراجم الكتاب تكاد تبلغ أحياناً مئة صفحة ، كما هي الحال مثلاً في ترجمتي المتنبي والصاحب بن عباد . وإلى جانب هذه التراجم المطولة الخصب تراجم قصيرة لا تتجاوز الصفحة الواحدة أو الصفحات القليلة . وفي رأينا أن قيمة

(١) يقول الثعالبي : والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لالسنة أهل العراق ، لمجاورة الفرس والبط ومداخلتهم إياهم . ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالادب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويشب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعث قرائحهم في الإجابة ، فقادوا محاسن الكلام بألن زمام ، وابدعوا ماشاءوا .

الكتاب الحقيقية ليست في تلك التراجم المطولة لمشاهير الشعراء والادباء، إذ أن أخبار هؤلاء وآثارهم معروفة ومشهورة يمكن الاطلاع عليها في دواوينهم وفي معظم كتب الأدب. ولكن قيمة الكتاب إنما هي في مئات التراجم القصيرة التي ينطوي عليها لا وئلك الشعراء الأوساط أو المغمورين الذين عاشوا في القرن الهجري الرابع في مختلف بقاع العالم الاسلامي الفسيح. فلولا تيمة الدهر لفقدت معظم أخبار هؤلاء وآثارهم ولما عرفنا عن كثير منهم شيئاً يذكر.

ومجمل القول إن المتصفح لكتاب **تيمم الدهر** يخرج من قراءته إياه بصورة حية كاملة للحياة الأدبية عامة، والشعرية خاصة، خلال المئة الرابعة. ومثل هذه الصورة تنقصنا مع الأسف للعصور السابقة، ذلك أن المصنفين قبل الثعالي كانوا في الغالب يعنون بالقدماء أكثر من معاصريهم. ولا بد لتثبيت صورة الحياة الأدبية في عصر من العصور من أن ينهض بصنعها أحد أبنائه، قبل أن يتأكل النسيان جوانب ذلك العصر ويغطي بصدئه على كثير من ملامح الحياة فيه.

وقد لاقت طريقة الثعالي هذه، التي تقوم على العناية بالشعر المعاصر، قبولاً لدى عدد من الادباء والمصنفين الذين جاءوا بعده، فحاولوا أن يطبعوا على غرارهِ. فكان لنا من جرّاء ذلك عدد من المصنفات تؤلف وكتاب الثعالي سلسلة متتابعة الحلقات. مثل كتاب **دمنة الفصم**

للباخريزي^(١)، وكتاب زينة الدهر للحظيري^(٢)، وكتاب خريدة القصر
لعماد الكاتب^(٣). وهذه العناوين المصنوعة في قالب واحد، تكفي
دليلاً على إعجاب مؤلفي هذه الكتب بالشعالي وحرصهم على ترسيم
خطاه في كتابه.

(١) هو ابو الحسن علي بن الحسن الباخريزي، نسبة الى باخرز - بفتح الحاء
وسكون الراء - ناحية من نواحي نيسابور. والباخريزي أحد الشعراء الادباء في
القرن الهجري الخامس، توفي سنة ٤٦٧ هـ. وكتابه «دمية القصر وعصرة أهل
العصر» يحتوي على تراجم عدد كبير من شعراء أواخر القرن الرابع وأوائل القرن
الخامس. وقد نشرت «الدمية» في حلب سنة ١٣٤٨ هـ «١٩٣٠ م» بتحقيق محمد
راغب الطباخ. والكتاب مقسم الى اقسام بحسب اقاليم الممالك الاسلامية على طريقة
تشبه طريقة الشعالي الى حد كبير.

(٢) هو ابو المعالي سعد بن علي بن القاسم الحظيري البغدادي المعروف بالوراق
دلال الكتب. كان اديباً وشاعراً رقيق الشعر، توفي سنة ٥٦٨ هـ. ألف كتاباً سماه
«زينة الدهر في لطائف شعراء العصر» ذيل به دمية القصر للباخريزي والكتاب مفقود.

(٣) هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصبهاني، كاتب صلاح الدين
الايوبي، مؤرخ وأديب وشاعر معروف. ولد في اصبهان سنة ٥١٩ هـ وتوفي في دمشق
سنة ٥٩٧ هـ. كان كتابه المشهور «خريدة القصر وجريدة العصر» مخطوطاً الى آمد
قريب. وفي عام ١٩٥٢ طبع القسم المتعلق منه بشعراء مصر في مطبعة لجنة التأليف
 والترجمة والنشر بالقاهرة في جزأين، واشرف على نشر هذا القسم الاساتذة احمد امين
 وشوقي ضيف واحسان عباس. ويقوم الآن المجمع العلمي العربي بدمشق بنشر القسم
 المتعلق منه بشعراء الشام باشراف الدكتور شكري فيصل.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام^(١) :

لم تقتصر شهرة اليتيمة على المشرق بل سرعان ما تجاوزته إلى المغرب .
وليس كتاب **الذخيرة** لابن بسام سوى محاولة أندلسية للنسيج على منوال
الشعالي . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى حرص الأندلسيين على مجاراة
المشاركة في كل مضمار .^(٢) وكما أن ابن عبد ربه ترسم في **العقد الفريد**
آثار ابن قتيبة في **عيون الأخبار** ، كذلك نهج ابن سلام نهج الشعالي
لنبيه من شأن معاصريه الأندلسيين . وكما جعل الشعالي كتابه في أربعة
أقسام بحسب أقاليم المملكة الإسلامية ، كذلك جعل ابن بسام كتابه
في أربعة أقسام ؛ فخصّ ثلاثة منها بأدباء الأقاليم الأندلسية الثلاثة :
المتوسط والغربي والشرقي ، ووقف القسم الرابع على الأدباء الوافدين
على الأندلس وعلى أدباء إفريقية والمشرق .

يبدأ ابن بسام مقدمة كتابه بالإشارة إلى ولوع الأندلسيين بأدب
المشاركة « حتى لو نعتق بتلك الآفات غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق

(١) هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، أحد أدباء الأندلس في القرن السادس
توفي سنة ٥٤٢ هـ . أما كتاب « الذخيرة » فقد شرعت لجنة جامعية من كلية الآداب
بالقاهرة بالإشراف على تحقيقه وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٩ م .
ولكن الكتاب لم يصدر منه مع الأسف حتى اليوم سوى ثلاثة أجزاء من أصل ثمانية
(٢) انظر ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . « هذا ، بينما يهمل هؤلاء الأندلسيون أدبهم وأدباءهم . ويغيب ابن بسام موقف مواطنيه هذا فلا يرى بداً من أن يأخذ نفسه بتتبع محاسن أهل بلده وعصره «غيرة» لهذا الافق الغريب أن تعودَ بدوره أهلةً ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصَّ أهل المشرق بالاحسان ؟ » وهكذا يؤلف ابن بسام كتابه الذخيرة ويجعله قاصراً على أدباء عصره ، فلا يذكر منهم إلا من أدركه بنفسه أو أدركه بعض معاصريه . (١)

ويشير ابن بسام في مقدمة كتابه إلى الخطة التي اتبعها في تصنيفه ، وإلى أسماء الشعراء والكتاب الذين سيجعلهم موضع حديثه في كل قسم من أقسامه ، وينهي كلامه في ذلك قائلاً : « وأما ذكرت هؤلاء اثنتاءً بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . » وهكذا يصرح ابن بسام بتأثره خطأ الثعالبي .

والنخبة أو في مرجع نملكه في تراجم شعراء الأندلس وأدبائه من

(١) يقول ابن بسام في مقدمة الذخيرة : « وقد كتبت لأرباب هذا الشأن من أهل الوقت والزمان محاسن تهر الألباب وتسحر الشعراء والكتاب . ولم اعرض بشيء من اشعار الدولة المروانية والمدائح العامرية ، ولا تعديت أهل عصري ممن شاهدته بعصري أو لحقه أهل دهري . »

أواخر القرن الهجري الرابع حتى اوائل القرن السادس^(١). وتراجم الكتاب مسهبة وجدّ غنية بالأخبار والمختارات. ومن المؤسف حقاً أن يبقى هذا السفر القيم حتى اليوم بعيداً عن متناول الباحثين في معظم أقسامه.

ب — الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة

لقي اللغويون والنحاة من عناية مصنفي التراجم ما لقيه الشعراء ؛ فالفت كتب العديدة في أخبارهم وتعداد آثارهم وبيان مذاهبهم . واتجه المؤلفون أيضاً في تصنيف تراجم هذه الفئة من العلماء وجهات مختلفة . فمنهم من نهج في تأليفه نهجاً زمنياً ، ومنهم من أخذ بعين الاعتبار المواطن التي نشأ فيها هؤلاء العلماء ، ومنهم من ذهب في التأليف مذهباً معجمياً فرتب التراجم على حروف المعجم .

(١) هنالك مراجع كثيرة أخرى يستطيع الباحث أن يعتمد عليها في مراجعة تراجم شعراء الاندلس وادبائه ، من أشهرها كتابا «قلائد العقيان» و«مطمح الانفس» لمؤلفهما الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الاندلسي المتوفى سنة ٥٢٩ هـ . والكتابان في تراجم اعيان الاندلس عامة في القرن الخامس ، من امراء ووزراء وقضاة وعلماء وادباء وشعراء . ويمكن اعتبار ثانيهما متمماً للأول . وهناك ايضاً كتاب «نفح الطيب» لاجد بن محمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، وهو موسوعة ادبية ضخمة ، استعرض فيها مؤلفها تاريخ بلاد الاندلس وادبائها من الفتح حتى خروج العرب منها ، والقارى يجد كثيراً من تراجم شعراء الاندلس مبثوثة هنا وهناك في هذا الكتاب الجميل . وهذه الكتب الثلاثة مطبوعة .

ولسنا نعرف على وجه اليقين أول من تصدّى للتأليف في هذا الباب .
غير أن من أقدم ما يذكره المؤرخون في هذا الموضوع كتاباً لأبي العباس
محمد بن يزيد المبرّد المتوفى سنة ٢٨٦ هـ عنوانه **طبقات النخوين البصريين**
وأخبارهم . وفي القرن التالي تتوالى الكتب في هذا الموضوع ، فيؤلف
ابن درستويه **أخبار النخوين** ، والسيرافي **طبقات النخاة البصريين** ، وأبو
الطيب اللغوي **مراتب النخوين والمرزباني المقتبس في أخبار النخوين**
واللغويين . ويتتابع المؤلفون في القرون التالية على تدوين تراجم النخاة
واللغويين فيحاول كل منهم أن يمضي في الموضوع إلى أبعد من الغاية التي
وصل إليها من قبله ، حتى يأتي الجلال السيوطي في أواخر القرن الهجري
التاسع فيضع معجمه الجامع : **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنخاة** .
وقد فقد كثير من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . كما أن بعضها
ما يزال حتى اليوم مخطوطاً . وسنكتفي هنا بذكر أربعة ننتقيها من بين
أشهر الكتب المطبوعة في هذا الباب وهي : **طبقات النخوين واللغويين**
لأبي بكر الزبيدي ، و**ترغمة الرباء لابن النباري** ، و**إنباه الرواة للقفطي** ،
و**بغية الوعاة للسيوطي** .

طبقات النخوين واللغويين للزبيدي : (١)

هذا الكتاب من أقدم ما وصلنا في موضوعه . وقد ظهر في الأندلس

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الأشبيلي المتوفى سنة ٥٣٧٩ هـ -

في أواسط القرن الهجري الرابع ، واستعرض فيه مؤلفه تراجم رجال اللغة والنحو من نشأة هذين العلمين حتى عصره ، أي خلال ثلاثة قرون تقريباً . وقد بنى المؤلف خطة كتابه على الاسس التالية :

آ - تصنيف تراجم اللغويين والنحاة بحسب مواطنهم . فالكتاب من هذه الناحية مقسوم إلى خمسة أقسام بحسب الاقاليم الخمسة التالية : البصرة ، والكوفة ، ومصر ، وافريقية ، والاندلس . وتقسيم الكتاب على هذا النحو أمر ذو شأن نظر إلى اختلاف المذاهب باختلاف الامصار .
ب - تصنيف علماء كل مصر من هذه الامصار في طبقات يختلف عددها من مصر إلى آخر . ومفهوم الطبقات في هذا الكتاب زمني ، أي أن رجال كل طبقة يمثلون جيلاً من اجيال المشتغلين باللغة والنحو .

ح - الفصل بين علماء اللغة وبين علماء النحو . ولم ينح الزبيدي هذا النحو إلا في تراجم البصريين والكوفيين . أما في تراجم علماء الامصار الأخرى فقد مزج بين الفريقين . ولعل المزج والتوحيد في هذا الباب أصوب لما بين هذين العلمين من اتصال وتعاون ، ولأنه قل أن تجد عالماً

من علماء عصره في النحو واللغة . درس على ابيه وعلى جماعة من مشايخ عصره منهم ابو علي القالي . وقد سبق ان اشرنا ص ٢١ حاشية ١ الى ان الزبيدي وضع مختصراً لكتاب العين . اما كتابه « طبقات اللغويين والنحويين » فقد سبق للمستشرق كرنكو ان نشر مختصره سنة ١٩١٩ م . وقد طبع هذا الكتاب للمرة الاولى كاملاً سنة ١٩٥٤ بمطبعة السعادة بمصر ، بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

استقلُّ بأحد العلمين تماماً فلم تكن له مشاركة في العلم الثاني البتة .

والتراجم في هذا الكتاب مختلفة القيمة ، فهي أحياناً ملائى بالأخبار ذات الدلالة القيمة ، وأحياناً أخرى في غاية الفقر . ولكن يجب ألا ننسى أن مجرد ذكر أحد اللغويين في طبقة معينة كافٍ للدلالة على موطنه ومذهبه وعصره على وجه التقريب .

وإذا كان لابد من الاشارة بفضل الزبيدي في تصنيف هذا الكتاب فمن العدل أيضاً أن نشيد بفضل الخليفة الاموي الحكم المستنصر بالله الذي كان الباعث للزبيدي على تأليف هذا الكتاب والراسم لخطته ، كما كان هو وأبوه الناصر الباعثين لأبي علي القالي أستاذ الزبيدي على تأليف اماليه (١) .

(١) يقول الزبيدي في مقدمة كتابه « ص ٩ - ١٠ » : « وان امير المؤمنين الحكم المستنصر - رضي الله عنه - لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم والاحاطة بصنوف الفنون ، امرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الاسلام . ثم من تلاهم من بعد الى زماننا هذا ، وان اطبقهم على ازمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم ، واذكر مع ذلك موالدهم واسنانهم ومدد اعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الامكان في ذلك وبحسب الادراك له ... فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به امير المؤمنين . »

نزهة الألباء في طبقات الأديباء ، الانباري : (١)

هذا الكتاب ظهر في أواسط القرن الهجري السادس (٢). وهو كتاب لطيف الحجم يحتوي على تراجم ما يقرب من مئتي عالم من علماء اللغة والنحو ، من نشأة علم النحو حتى عصر المؤلف . والكتاب يبدأ بمقدمة في نشأة علم النحو في القرن الأول ، ثم تتوالى فيه تراجم اللغويين والنحاة مرتبة ترتيباً زمنياً عاماً بحسب سني وفاة أصحابها . ولم يصنف الانباري هؤلاء العلماء بحسب مواطنهم أو بحسب أجيالهم كما فعل الزبيدي قبله ، وإنما اكتفى بالترتيب الزمني كما فعل ابن قتيبة في السمع والسمر . ويغلب على الظن أن الانباري لم يطلع على كتاب الزبيدي ، فهو لا يترجم له ولا يشير الى كتابه بين مصادره . ولو انه اطلع عليه لافاد من منهجه . ومع هذا فإن كتاب الانباري خير متمم لكتاب الزبيدي ، إذ أنه يتناول تراجم رجال اللغة والنحو حتى منتصف القرن السادس ، بينما يقف كتاب الزبيدي كما رأينا عند منتصف القرن الرابع .

(١) هو ابو البركات عبد الرحمن بن محمد عبد الله الانباري الملقب بالكمال النحوي .

قرأ النحو على ابن الشجري واللغة على ابي منصور الجواليقي . من مصنفاته المشهورة « الانصاف في مسائل الخلاف بين نحاة الكوفة والبصرة » . اما كتابه « نزهة الألباء » فقد طبع في مصر سنة ١٢٩٤ هـ .

(٢) يدل على ذلك ان آخر ترجمة في الكتاب هي لاساذ المؤلف ابي السعادات ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ . وقد اشار الانباري الى تاريخ وفاة ابن الشجري مما يدل على انه الف كتابه بعد ذلك التاريخ .

انباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي : (١)

ظهر هذا الكتاب في القرن الهجري السابع . وقد نهج مؤلفه في تصنيفه نهجاً معجماً ، فرتب تراجمه على حروف أسماء أصحابها كما فعل المرزباني في معجم الشعراء . وقد جهد المؤلف أن يستقصى في كتابه هذا أخبار اللغويين والنحويين الذين عاشوا في مختلف اقاليم العالم الاسلامي من عصر ابي الأسود الدؤلي حتى القرن الهجري السابع . واستعان على تحقيق غايته بكنوز مكتبته ، اذ ان القفطي كان شديد الشغف باقتناء الكتب يرتخص في سبيل الحصول عليها كل غال ونفيس .

وقد بدأ القفطي كتابه ، كما فعل غيره ممن ألف في هذا الباب ، بمقدمة في مبدأ علم النحو ، ردد فيها الاخبار التي تعود للمؤرخون ترددها في هذا الصدد . وقد حمّله ذلك على أن يقدم ترجمتي علي بن أبي طالب وأبي الاسود الدؤلي على تراجم غيرهما ، لما لهما من صلة بموضوع نشأة علم العربية .

(١) هو القاضي الاكرم الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي نسبة الى قفط : بلدة مصرية - . ولد سنة ٥٦٨ هـ وعاش صدر حياته في القاهرة وبيت المقدس . ثم قضى بقية حياته كاتباً ووزيراً للايوبيين في حلب ، حيث توفي سنة ٦٤٦ هـ . له مؤلفات كثيرة في التاريخ والادب . اما كتابه « انباء الرواة في انباء النحاة » فقد شرعت دار الكتب المصرية بطبعه عام ١٩٥٠ م بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . وقد ظهر منه حتى اليوم جزآن يحتويان على تراجم النحاة من حرف الهمزة حتى حرف العين .

والكتاب بمجموعه شاهد على حسن إلمام المؤلف بما صنف قبله في التراجم ، وعلى شديد اتصاله بالاوساط العلمية والادبية في عصره . وفيه معلومات كثيرة انفرد بها لفقدان الأصول التي استقاها منها .

أما من حيث ترتيب تراجم الكتاب فإن الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، محقق الكتاب ، يأخذ عليه عدم الدقة في ترتيبه ، « فهو يذكّر مثلاً ابراهيم بن عبد الله قبل ابراهيم بن اسحاق ؛ والخليل بن احمد قبل خلف بن محرز ، ومثل هذا كثير . وقد صرح المؤلف بأن الترتيب لم يكن من عمله بل من عمل الناسخ . » ويأخذ عليه محققه أيضاً « أنه كرر بعض التراجم بأسماء مختلفة . » ولكن الكتاب يبقى على الرغم من هذه الشوائب مثلاً جميلاً من أمثلة تلك الكتب الخصبه الجامعة التي زودنا بها علماء القرنين السابع والثامن .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي : (١)

عكف السيوطي ، وهو في العشرين من عمره ، على تأليف كتاب يجمع أخبار النحويين ، بعد أن رأى أن الكتب التي صنف من قبل في هذا الموضوع — على كثرتها — غير وافية بالغرض . فعمد من أجل تحقيق غرضه هذا إلى البحث عن مادته في جميع مظانها . وإن القارئ لكتاب البغية ليدهش حقاً لذلك الثبت الطويل الذي صدر به السيوطي كتابه

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي . كان من اوسع —

وذكر فيه أسماء مصادره بالتفصيل . فهو لم يترك كتاباً من كتب التراجم والأدب والاختبار إلا وقف عليه . ويقول السيوطي في مقدمة كتابه بعد أن يعدّد مصادره الكثيرة : « فجمعت كل ما تضمنته هذه الكتب المذكورة من ترجمة نحوي ، طالت أو قصرت ، خفيت أخبارها واشتهرت ، وأوردت من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم ما لا يجمع في كتاب ؛ بحيث بلغت المسوّدّة سبع مجلدات . فلما حلت بمكة المشرفة سنة تسع وتسعين ^(١) وقفت عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد جزاه تعالى أحسن الجزاء ، وحباه أبلغ الحباء ، فأشار عليّ بأن ألخص منها طبقات في مجلّة تحتوي على المهم من التراجم ، وتجري مجرى ما ألفه الناس من المعاجم . فحمدت رأيه ، وشكرت لذلك سعيه ، ولخصت منها اللباب في هذا الكتاب . »

فالكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو إذاً خلاصة لكتاب واسع جداً في موضوعه . وهذا ما يفسر لنا اختصار التراجم فيه واقتصارها في أغلب

= علماء عصره ثقافة وأخصبهم آثاراً . صنف ما يزيد على ٥٠٠ كتاب في القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب والتاريخ وغير ذلك من فروع الثقافة الإسلامية ، وتوفي في القاهرة سنة ٩١١ هـ وهو لم يتجاوز الثالثة والستين من عمره . أما كتابه (بغية الوعاة) فقد طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

(١) أي سنة ٨٩٩ هـ . وذلك بعد ثلاثين سنة من شروعه بتأليف الكتاب ، إذ أن السيوطي يذكر في مقدمة كتابه أنه جرّد همته لجمع مادة كتابه سنة ٨٦٨ هـ .

الأحيان على ذكر اسم العالم، وتاريخ وفاته، وأسماء أساتذته وتلامذته،
وعناوين مصنفاته . وقد يورد المؤلف أحياناً نتفاً من أخبار من يترجم لهم
وأراهم المشهورة ، ولكنه في كل ذلك يلزم جانب الإيجاز الشديد .
وقد اتبع السيوطي في ترتيب تراجم كتابه المنهج المعجمي أيضاً
فرتبها على الحروف، إلا أنه بدأ بذكر المحمدين والاحمدين قبل البدء
بحرف الهمزة، إجلالاً للرسول العربي الكريم المسمى بهذين الاسمين.
والكتاب بعد ملخصٍ ومتمم لجميع ما ألف قبله في تراجم اللغويين
والنحاة . ولا بد للباحث من الاعتماد عليه في مراجعاته ، وخاصة إذا لم
يعثر على مراده في الكتب الأخرى التي ذكرناها قبله .

م -- الكتب المصنفة في تراجم الأدباء عامة

معجم الأدباء لياقوت : (١)

أشار ياقوت في مقدمة كتابه إلى أولئك الذين نظمهم في سلك

(١) عنوان الكتاب الأصلي : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
ولكنه اشتهر بمعجم الأدباء اختصاراً ، وليكون هذا الاسم مناظراً لاسم كتاب آخر
مشهور للمؤلف نفسه هو : معجم البلدان . ومؤلف هذين الكتابين هو أبو عبد الله
الرومي الحموي ، من أعلام التأليف في القرنين السادس والسابع . أصله من الروم ،
وكان مولى لتاجر بغدادى اسمه (عسكر الحموي) ، ومن هنا لقبه الثاني (الحموي) . =

الأدباء وعني بذكر تراجمهم في كتابه فقال : « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين واللغويين ، والنسابين ، والقرّاء المشهورين والاعباريين ، والمؤرخين ، والورّاقين المعروفين ، والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدوّنة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكلّ من صنف في الأدب تصنيفاً ، أو جمع في فنّه تأليفاً . مع إشارته باختصار والإيجاز ، في نهاية الإيجاز . ولم آل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصنيفهم ومستحسن أخبارهم ، والاعبار بألسانهم وشيء من أشعارهم . فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ما لا أترك لك بعده تشوفاً إلى شيء من خبره ما أدت الاستطاعة إليه ، ووقفني النقل عليه في تردادي إلى البلاد ومخالطتي العباد . » (١) .

ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يتضمن تراجم الشعراء . اللهم إلا من عُرف إلى جانب الشعر بالتصنيف والتأليف ، كأبي العلاء المعري ،

وقد ربا مولاه وثقفه ثقافة حسنة وشغله بالأسفار في متاجره . فأفاد ياقوت كثيراً من هذه الأسفار . وبعد موت سيده ثابر بنفسه على الترحّل والدراسة والتأليف إلى أن توفي في حلب سنة ٦٢٦ هـ وهو في الحسین من عمره . وقد طبع (إرشاد الأريب) لأول مرة في أوروبا في ٧ مجلدات بإشراف المستشرق الإنجليزي مرجليوث بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٢٦ م . وطبع الكتاب أيضاً في مصر في ٢٠ جزءاً بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ بإشراف الدكتور أحمد فريد الرفاعي (مطبوعات دار المأمون) . (٢)

والبحتري ، وابن عبدربه الأندلسي وغيرهم . أما الشعراء الذين لم يعرفوا إلا بقول الشعر ، ولم يتركوا من الآثار سوى دواوينهم ، فلم يأت ياقوت في معجم الأدباء إلا على ذكر عدد قليل منهم . ويعود السبب في ذلك الى أن المؤلف قد صنّف كتاباً مستقلاً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ذكر فيه « كل من غلب عليه الشعر ، فدوّن ديوانه ، وشاع بذلك ذكره وشأنه ، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها والآداب وتصنيفها . » (١) ولكن هذا الكتاب قد فقد وبقي معجم الأدباء خلواً من أخبار الشعراء . وقد رتب ياقوت كتابه على حروف المعجم أيضاً . وكان شديد التدقيق في هذا الترتيب يراعيه في تنابع التراجم ، كما يراعيه في ترتيب أحرف اسم الأديب واسم أبيه . وإذا اتفقت أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم قدّم من تقدمت وفاته . وكان ياقوت دقيقاً أيضاً في ذكر مصادره وصرح بذلك في مقدّمة كتابه فقال : « وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعوّل في هذا الشأن عليهم ، والمرجوع في صحة النقل اليهم » (٢)

ويغلب على الظن أن ياقوتاً ألف كتابه في أواخر حياته وأنه لم يُتاح له تبييضه والفراغ منه . فمقدمة الكتاب تنبئ بأن المؤلف كتبها والكتاب

(١) معجم الادباء ج ١ ، ص ٥٠

(٢) معجم الادباء ج ١ ، ص ٤٩ - ٥٠

ما يزال مسودة لم تهذب وتنقح وتبيض ، وأنه كان أقسم ألا يسمح بإعادة الكتاب مادام في مسودته ، ولعله ابقى كتابه على هذا الشكل كي يبرر بقسمه ويمنع الكتاب عن طالبيه . فقد كان شديد الحرص عليه لا يسمح بنسخه ، لأنه كان منه - على حدّ قوله -- بمنزلة الروح في جسد الجبان ^(١) . وقد وعد ياقوت في مقدمة كتابه أن يفرد في آخر كل حرف فصلاً يذكر فيه من اشتهر بقلبه من الأدباء على ذلك الحرف ، من غير أن يورد شيئاً من أخباره فيه ، وقصده من ذلك أن يدل على اسم صاحب اللقب واسم أبيه ليطلبه القارئ في موضعه ^(٢) . ولكننا لا نجد في الكتاب شيئاً من هذا . فإذا أضفنا إلى ماتقدم أن النقص يعتور الكتاب في مواضع متعددة جاز لنا أن نفترض ما قدمناه من أن المؤلف لم يتح له أن يتم كتابه نهائياً وأن الموت قد عاجله عن إتمامه ؛ إذ أنه مات ولم يتجاوز الحسين من سنيه . والكتاب ، بعد ، اضخم معجم نملكه للأدباء على اختلاف اختصاصهم فهو يلخص معظم الكتب التي ذكرناها في هذا الفصل ويتمها ويتوجها ، ولذلك كان أول المراجع في موضوعه وأكثرها تداولاً .

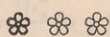


هذه أشهر الكتب المصنفة في تراجم الأدباء . وهي كما رأينا مختلفة من حيث الموضوع ومتباينة من حيث الحطة . وإذا كان هنالك ما يؤخذ

(١) معجم الأدباء : ج ١ ، ص ٥٨

(٢) » » : ج ١ ، ص ٨١

على هذه التراجم فهو تشتت المعلومات فيها وعدم اطرادها على نسقٍ صحيح ؛ إذ المستحسن في تدوين التراجم أن تطرد فيها الاخبار على نهج منطقي فتتناول حياة الشخص المترجم له وتتابع آثاره في طفولته حتى وفاته، وهذا مالا نجدله أثرأ في تراجم أدبائنا كما حفظها لنا هذه الكتب . كما أنه مما يؤخذ على هذه الكتب ، ولا سيما المتأخرة منها ، ضعف الاصلة فيها أو فقدانها تماماً ، إذ أنها في كثير من الاحيان يكرر بعضها بعضاً . ولكن مهما يكن من خطر هذه المآخذ فإن هذه الكتب تبقى من أهم مراجعنا ومصادرنا في الدراسات الادبية .



ونختتم هنا هذا الفصل . وقد كان بودنا ان نشير قبل ختامه إلى كتاب التراجم المعروف **وفيات الاربعة** لمؤلفه المؤرخ المشهور ابن خلدون المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وأن نشير أيضاً الى كتب التراجم الاخرى التي ألفت تمتة أو توسعة لهذا الكتاب : مثل كتاب **فوات الوفيات** لمحمد بن شاكر الكتبي المتوفى نحو سنة ٧٦٤ هـ ، وكتاب **الوفائي بالوفيات** لصلاح الدين الصفدي المتوفى في السنة ذاتها ، وهي كتب يكثر الرجوع اليها للبحث فيها عن تراجم الادباء عامة لأنها تشتمل على عدد وفير منها . ولكننا آثرنا ذكر هذه الكتب في الباب الثالث من هذا الكتاب ، لأنها مصنفات في التراجم عامة لافي تراجم الادباء ؛ فهي من هذه الناحية أشد صلة بكتب التاريخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ينتهي هنا الجزء الأول من هذا الكتاب

ويليه الجزء الثاني

وأوله :

الباب الثالث : التأليف في التاريخ

فهرس اسماء الكتب

ذكرنا في هذا الجدول أسماء الكتب التي ورد ذكرها في هذا الجزء مرتبة على حروف المعجم . وأشرنا بنجمة (*) الى الكتب التي كانت موضع دراسة أو حديث خاص في هذا الكتاب :

الصفحة	اسم الكتاب ومؤلفه
١٥	الابل ، للاصمعي
١٨٠	أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ، لياقوت
١٧١	أخبار النحويين ، لابن درستويه
١٠٦	أدب الكاتب ، لابن قتيبة
١٧٨	إرشاد الأريب ، لياقوت
٣٠	أساس البلاغة ، للزخشري
١٥	أسماء الوحوش وصفاتها ، للأصمعي
١٣٢	الأشربة ، لابن قتيبة
٨٩	الأصمعيات ، للأصمعي
١٦	الأضداد ، للأصمعي
١٦	الأضداد ، لأبي حاتم السجستاني
١٦	الأضداد ، لابن السكيت
١٥٦	الأعاني ، لابي الفرج الأصبهاني
٤٦	الألفاظ ، لابن السكيت
٥٠	الألفاظ الكتابية ، للهمداني

الصفحة	اسم الكتاب ومؤلفه
١٤٥	أمالي ابن الشجري
١٤٥	أمالي السيد المرتضى
١٤٠	❖ أمالي القالي
١٧٥	❖ إنباه الرواة ، للقفطي
١٧٦	❖ بغية الوعاة ، للسيوطي
١١٩	❖ البيان والتبيين . للجاحظ
٣٨	تاج العروس ، للزبيدي
٢٥	التهذيب ، للازهري
١٣٢	تأويل الرؤيا ، لابن قتيبة
٩٠	❖ جهرة أشعار العرب ، للقرشي
٢٦	❖ جهرة اللغة ، لابن دريد
٥٤	❖ جواهر الالفاظ ، لقدامة بن جعفر
١٠٢	❖ حماسة ابن الشجري
٩٨	حماسة ابن فارس
٩٥	❖ حماسة أبي تمام
٩٩	❖ حماسة البحتري
٩٨	حماسة البياسي
٩٨	حماسة الخالدين
١١٢	❖ الحيوان ، للجاحظ
١٦	خلق الانسان ، للأصمعي
١٥	الحل ، للأصمعي
١٦٦	دمية القنصر للباخري
٩٣	❖ ديوان الهذليين ، للسكري
١٦٨	❖ الذخيرة ، لابن بسام

الصفحة	اسم الكتاب ومؤلفه
١٥١	الرحل والمنزل ، لابن قتيبة
١٤٥	زهر الآداب ، للحصري القيرواني
١٦٧	زينة الدهر ، للحظيري
١٥٠	الثناء ، للأصمعي
٩٩	شرح حماسه أبي تمام ، للشنتمري
٩٩	البيهقي ، ، ، ،
٩٩	العكبري ، ، ، ،
٩٨	العسكري ، ، ، ،
٩٨	الآمدي ، ، ، ،
٩٨	للصولي ، ، ، ،
٩٨	لابن جني ، ، ، ،
٩٩	للمرزوقي ، ، ، ،
٩٩	للتبريزي ، ، ، ،
٩٩	للميكالي ، ، ، ،
١٥٢	✽ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة
٤١	شفاء الغليل ، للخفاجي
١٤٥	صبح الأعشى ، للقلقشندي
٣٢	✽ الضحاح ، لجوهري
١٤٨	✽ طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، لابن سلام
١٧١	طبقات النحويين البصريين واخبارهم ، للمبرد
١٧١	طبقات النحاة البصريين ، للسيرافي
١٧١	طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي
١٣٥	✽ العقد الفريد ، لابن عبد ربه
٢١	✽ العين ، لاخليل بن احمد

الصفحة	اسم الكتاب ومؤلفه
١٣٠	❖ عيون الأخبار ، لابن قتيبة
١٧	❖ فعلت وأفعلت ، للزجاج
١٧	❖ فعل وأفعل ، لقطرب
٥٨	❖ فقه اللغة ، للثعالبي
١٨٢	❖ فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي
٣٧	❖ القاموس المحيط للفيروز ابادي
١٧٠	❖ قلائد العقيان ، لابن خاقان
١٢٥	❖ السكامل ، للمبرد
١٥	❖ اللبأ واللبن ، للأصمعي
٣٦	❖ لسان العرب ، لابن منظور
٢٨	❖ مجمل اللغة ، لابن فارس
٢٥	❖ المحكم ، لابن سيده
٣٤	❖ مختار الصحاح ، للرازي
١٠٣	❖ مختارات ابن الشجري
٢١	❖ مختصر العين للزبيدي
٦٣	❖ المختصص ، لابن سيده
١٧١	❖ مراتب النحويين ، لابي الطيب اللغوي
٣١	❖ المصباح المنير للفيومي
١٩	❖ المطر ، لابي زيد الأنصاري
١٧٠	❖ مطمح الأنفس ، لابن خاقان
	❖ معجم الأديباء لياقوت ، (انظر : ارشاد الأريب)
١٦٠	❖ معجم الشعراء للمرزباني
٤١	❖ المعرب للمجواليقي
٨٥	❖ المفضليات ، للمفضل الضبي

الصفحة	اسم الكتاب ومؤلفه
٢٨	❖ مقاييس اللغة ، لابن فارس
١٧١	المقتبس في اخبار النحويين والمغويين ، الهرزباني
١٠٥	مقدمة ابن خلدون
٤٠	ملحق المعاجم العربية ، لدوزي
١٦١	❖ المؤلف والمختلف ، للامدي
١٥	النبات والشجر ، للأصمعي
١٥	النخل والكرم ، للأصمعي
١٧٤	❖ نزهة الألباء ، للأنباري
١٧٠	نفح الطيب ، للمقري
١٢	❖ النوادر ، لأبي زيد الأنصاري
١٤٥	نهاية الأرب ، للنويري
٣١	النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير
١٦	الهمز ، لأبي زيد الأنصاري
١٨٢	الوافي بالوفيات ، للصفدي
١٦٨	وفيات الأعيان ، لابن خلكان
١٦٢	❖ تيسمة الدهر ، للثعالبي

مصادر البحث في هذا الجزء

- إن مصادر البحث الرئيسية في هذا الجزء هي الكتب التي ورد ذكرها في الجدول السابق ، مضافاً إليها الكتب التالية :
- الاعلام لحير الدين الزركلي . الطبعة الاولى سنة ١٩٢٧ م .
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (بالالمانية) .
- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ م .
- دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) .
- ضحى الاسلام لاحد أمين . ثلاثة أجزاء . الطبعة الاولى سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٦
- ظهر الاسلام لاحد أمين . ثلاثة أجزاء . الطبعة الاولى سنة ١٩٤٥ - ١٩٥٣
- فجر الاسلام لاحد أمين . جزء واحد . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .
- الفهرست ، لابن النديم . طبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ .
- كشف الظنون لحاجي خليفة ؛ الطبعة التركية سنة ١٩٤١ .
- معجم المطبوعات العربية ، لسركيس .
- المزهر ، للسيوطي ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٢ هـ .
- النقد الشعري عند العرب من نشأته حتى نهاية القرن الهجري الخامس ،
للمؤلف (بالفرنسية) .

فهرس الأعلام

ذكرنا في هذا الفهرس الأعلام التي وردت تراجم أصحابها في حواشي هذا الجزء ، مرتبة على حروف المعجم ، وقد راعينا العلم الذي اشتهر به الشخص سواء كان اسماً أو كنية أو لقباً :

رقم الصفحة	رقم الحاشية
١٦٠	٢
٣١	١
٦٤	١٠
١٦٨	١
٢٤	١
٢٦	١
٤٥	٤
٨١	٧
٢٥	٢
١٠٢	١
١٣٥	٣
٢٨	١
٦٤	١٢
٣٤	١
١٢	١

الأمدي (الحسن بن بشر)
 ابن الأثير (المبارك بن محمد)
 ابن الأعرابي (محمد بن زياد)
 ابن بسام (علي بن بسام)
 ابن جني (عثمان بن جني)
 ابن دريد (محمد بن الحسن)
 ابن السكيت (يعقوب بن اسحق)
 ابن سلام الجمحي (محمد بن سلام)
 ابن سيده (علي بن اسماعيل)
 ابن الشجري (هبة الله بن علي)
 ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)
 ابن فارس (أحمد بن فارس)
 ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
 ابن منظور (محمد بن مكرم)
 أبو زيد الأنصاري (سعيد بن أوس)

رقم الصفحة	رقم الحاشية	
١٥٦	١	أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين)
٨١	١	أبو عمرو بن العلاء (زبّان بن العلاء)
٢٥	١	الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد)
١٥	٢	الأصمعي (عبد الملك بن قُريب)
١٧٤	١	الأنباري (عبد الرحمن بن محمد)
٥٨	١	الثعالبي (عبد الملك بن محمد)
٦٤	١	ثعلب (أحمد بن يحيى)
٨٢	٦	» (» »)
٣١	٣	الجوهري (اسماعيل بن حماد)
١٤٥	٣	الحصري القيرواني (أبو اسحق إبراهيم بن علي)
١٦٧	٢	الحظيري (سعد بن علي)
٨١	٤	حماد الراوية (حماد بن ميسرة)
٨١	٣	خلف الأحمر (خلف بن حيّان)
٢١	١	الخليل بن أحمد الفراهيدي
٦٤	٢	الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود)
١٧١	١	الزبيدي (محمد بن محمد)
١٧	٢	الزجاج (إبراهيم بن السري)
٣٠	١	الزحشرى (محمود بن عمر)
٦٤	٦	السجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد)
٨٢	١	السكري (أبو سعيد الحسن بن الحسين)
١٧٦	١	السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)
٨٢	٢	الشيباني (أبو عمرو اسحق بن مرار)
٨٢	٤	الطوسي (علي بن عبد الله)
٧٩	٣	عبد الله بن عباس

رقم الصفحة	رقم الحاشية	
٧٩	٢	عقيل بن أبي طالب
١٦٧	٣	العماد الكاتب (محمد بن محمد)
٦٤	٣	الفراء (يحيى بن زياد)
٣٤	٢	الفيروز ابادي (محمد بن يعقوب)
٣١	٢	الفيومي (أحمد بن محمد)
١٤٠	٢	القالبي (أبو علي اسماعيل بن القاسم)
٥٤	١	قدامة بن جعفر
١٧	١	قطرب (محمد بن المستنير)
١٧٥	١	القفطي (علي بن يوسف)
٦٤	٨	كراع النمل (علي بن الحسين الرؤاسي)
٦٤	١١	الاحياني (علي بن حازم)
٢٣	١	الليث بن المظفر
٦٤	٧	المبرد (محمد بن يزيد)
٨٢	٣	محمد بن حبيب
٧٩	١	مخرمة بن نوفل
١٤٥	١	المرتضى (الشريف علي بن الحسين)
١٦٠	١	المرزباني (محمد بن عمران)
٦٤	٩	النضر بن شميل
٥٠	٢	الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى)
٧٨	١	هدبة بن خشرم
١٧٨	١	ياقوت الرومي (ياقوت بن عبد الله)

فهرس مواد الجزء الاول

الصفحة

٣

بين يدي هذا الكتاب

٥

المقدمة

٧

الباب الاول : التأليف في اللغة

٩

تمهيد في فوائد المعاجم اللغوية وأنواعها

١١ - ٤٣

الفصل الاول : معاجم الالفاظ

المرحلة الاولى لتدوين الالفاظ - تأليف الرسائل
اللغوية - وضع المعاجم - ترتيب المعاجم بحسب مخارج
الحروف - ترتيبها بحسب الترتيب الهجائي مع مراعاة
أوائل الكلمات - ترتيبها مع مراعاة أواخر الكلمات -
أشهر المعاجم وأكثرها تداولاً - بعض الملاحظات على
المعاجم العربية القديمة .

٤٤ - ٧٢

الفصل الثاني : معاجم المعاني

تأليف بعض الرسائل الصغيرة في الموضوع - تأليف
بعض الكتب الواسعة : كتاب (الالفاظ) لابن
السكيت ، كتاب (الالفاظ الكتابية) لاهمذاني
كتاب (جواهر الالفاظ) لقدامة بن جعفر - وضع

معاجم المعاني والكلام على (فقه اللغة) للشعالبي
و (المخصص) لابن سيده .

• ٧٣

الباب الثاني : التأليف في الادب

٧٥

تمهيد في حصر موضوعات الباب

١٠٤—٧٧

الفصل الاول : المجموعات الشعرية القديمة

رواية الشعر في الجاهلية وصدر الاسلام - نشاط الرواية
في عصر التدوين - جمع الدواوين وتصنيف المختارات -
أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث :
(المفضليات) ؛ (الاصمعيات) ؛ (جهرة اشعار العرب) ؛
(ديوان الهذليين) ؛ (حماسة) أبي تمام ؛ (حماسة)
البحجري ؛ (حماسة) ابن الشجري و (مختاراته) .

١٤٥—١٠٥

الفصل الثاني : كتب الثقافة الادبية العامة

مفهوم كتب الادب وصفاتها - أشهر مؤلفي هذه الكتب
في القرن الثالث : الجاحظ وكتابه (الحيوان) و (البيان
والتبيين) ؛ المبرد وكتابه (الكامل) ؛ ابن قتيبة
وكتابه (عيون الاخبار) - أشهر مؤلفي كتب الادب
في القرن الهجري الرابع : ابن عبدربه وكتابه (العقد
الفريد) ؛ القالي وكتابه (الامالي) - واستمر احرار
كتابة تأليف كتب الادب بعد القرن الرابع .

١ - ١٤٦

الفصل الثالث : كتب تراجم الادباء

عناية المؤلفين بتدوين التراجم - أشهر الكتب المصنفة

في تراجم الشعراء : (طبقات الشعراء) لابن سلام ؛
(الشعر والشعراء) لابن قتيبة ؛ (الاثناني) لأبي الفرج
الاصمهاني ؛ (معجم الشعراء) للمرزباني ؛ (المؤلف والمختلف)
للامدي ؛ (يتيمة الدهر) للثعالبي ؛ (الذخيرة) لابن
بسام - أشهر الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة :
(طبقات النحويين) للزبيدي ؛ (نزهة الالباء) لابن
الانباري ؛ (انباء الرواة) للقفطي ؛ (بغية الوعاة)
للسيوطي - أشهر الكتب المصنفة في تراجم الادباء عامة :
(معجم الادباء) لياقوت - بعض الملاحظات العامة على
هذه الكتب .

١٨٤

فهرس أسماء الكتب

١٨٩

مصادر البحث

١٩٠

فهرس الأعلام

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٥	ولكنه قسم كل كتاب بدوره	ولكنه قسم كلا منهما
٣٤	حاشية (٤)، سطر (٢)	بن	ابن
٤٧	١٠	ولا تعقد	ولا تقعد
١١١	١٢	وأشبع حواسه	وأشبع منها حواسه
١١٣	١٠	روؤس	رؤوس
١١٣	حاشية (٣)، سطر (١)	ألم تر الى الابل	أفلا ينظرون الى الابل
١١٦	٧	القران	القرآن
١٢٤	١٠	لحقت	لحقت
١٦٨	١٣	الآفات	الآفاقي



DATE DUE



008.06-T17nA.v.1 no.1

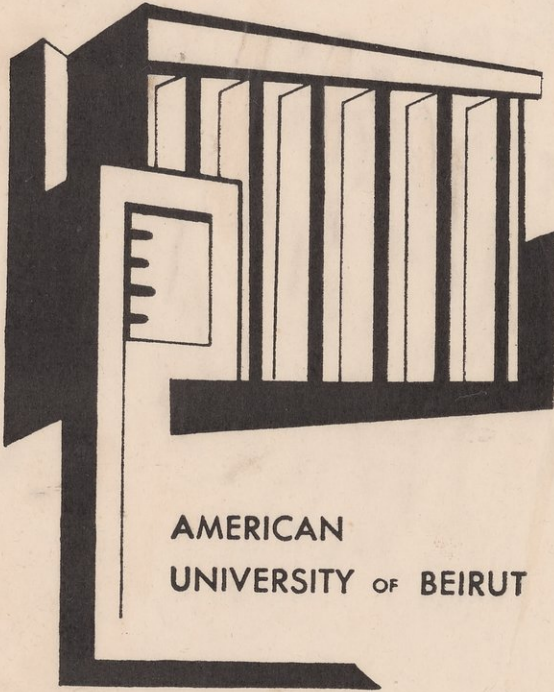
الطرابلسي ، امجد

نظرة تاريخية في حركة التأليف عند ال

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031702



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

808.06

Ta 176nA

v.1

C.1